



فلاسفة العرب



ابن الفارسي

*Arab Philosophers Series*

*14 Vols*



يوحنا قير

# ابن الفارصن

مقدمات في التصوف



دراسة - شعر مختار

طبعة ثالثة منقحة

المطبعة الكاثوليكية  
بيروت

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net



هذه دراسة في التصوف وابن الفارض ، تلبيها دراسات في  
فلسفة العرب ومفكرتهم ، وقد تلبيها اخرى فيمن اثروا في الفكر  
العربي وتأثروا به . هدفنا من ذلك اجلاء تراث ، ونشر فكر ، ورسالة  
هو . وفانا الله من النطق بالباطل ، والزيف مع الهوى .

ي . ق .

حين يقدم باحث على درس التصوف لا بد له من القيام بامرئين :  
الاول : هو عرض امين لما رواه التاريخ ، اي لما رواه الصوفيون  
عن انفسهم ، او رواه عنهم الناس .

والثاني : هو الحكم على هذه الرواية من حيث امكانها ، ووقوعها .  
واناً في دراستنا هذه لنشأ التصوف الاسلامي وتطوره ، واسيرة  
ابن الفارض ومواجهه ، قد توخينا جهداً الامانة ، فنظرنا الى التاريخ  
بعين من وضعه ، وبلغته كتبناه .

على انا لم نثم - الا لاما - بالحكم على الرواية ، بالفصل بين  
التاريخ والاسطورة ، بين الحقيقة والوهم . ذلك لانا نعتقد ان مثل هذا  
الحكم يفترض حلاً للمشكلة الصوفية من اساسها ، من حيث ان  
التصوف سبيل الى الله سوي ، ومن حيث الشروط الجوهرية لاستواء  
هذا السبيل ، فيتيسر حينئذ الحكم على الظواهر والفروع . واناً سنحاول  
حلاً لهذه المشكلة في غير هذا المكان ، في دراسة جامعة لكبرى  
معضلات الفكر العربي .

مَقَامٌ فِي النَّصْرِ





## ما مصادر الصوفية؟

كل بيئة دينية توفر في نفوس ابنائها الاخلاص والتفكير قابلة لظهور الروح الصوفية . فالتصوف اذاً ليس محصوراً على عرق ، او لغة ، او امة ، ان هو الا مظهر روحي بشري لا تحده مثل هذه الحدود المادية . . .

هو القرآن يردد المسلم تلاوته ، ويتأمل فيه ، ويقوم بفرائضه ، قد كان في اصل التصوف وعمل على نموه .

اغرق التصوف الاسلامي في مطالعة القرآن ، وجدّ في قراءة كتاب يؤمن بوحيه ، فكان له منه اظهر خصائصه : كان الذكر ، وكانت مجالس تُتلى فيها آيات القرآن ، او تأملات نثرية وشعرية مماثلة .

ثم تطورت مجالس الذكر هذه ، فكان السماع . . . وكان الوجد . . . والرقص وغزيرق الثياب .

### ماسينيون

لا ريب في ان الشعور الصوفي « غير مقصور على عرق ، او لغة ، او امة » ( ماسينيون ) . . .

وكثيرة آيات القرآن التي تثير في النفس خوف الله وحسابه ، اساس كل زهد صحيح . . .

على ان القرآن اجمالاً لا يبدي كافيّاً لاثارة الشعور الروحي الداخلي . . . وانه لما يسترعي الانتباه ان اقدم الفرق الاسلامية ، كالتوارج والامامية ، قاومت التصوف ، كما قاومه حديثاً الوهايون مجددو الاسلام الاول . ليس هذا الاتفاق دليلاً على ان التصوف دخيل في الاسلام . . . هذا التصوف الذي نشأ في سوريا ومصر ، مهد الرهبانية ووطنها المصطفى ؟ . . .

ان التصوف الاسلامي اخذ عن التصوف المسيحي اموراً كثيرة . . . اخذ

التأمل الفردي او في جماعة ، والسهر الطويل ، وتلاوة الكتاب ، وطلبات الذكر . . . وقال بضرورة شيخ مرشد . . . (١)  
 ثم منذ القرن الثاني الهجري . . . حدث اتصال بين البيئات الفكرية الاسلامية والبيئات الارامية من مسيحية ويهودية ، فاطلع المسلمون على الفلسفة اليونانية . . . واستقى الزهد الصوفي من الافلاطونية المستحدثة . . .  
 ثم توغل التصوف ، بعد ذلك ، في آسيا الوسطى . . . فقلّد متصوفي (Yoghis) الهند في بعض ما يمارسون ، سيما في قولهم بالفناء ، بتلاشي الذات الفردية للاندماج في الله الباقي .

### لامنس

ليس القرآن مصدر التصوف ، بل مصادره غريبة . . . ان فتشت عنها لن تجدها الا في النصرانية ، او في الفلسفة اليونانية ، او في ديانات الهند والفرس وفي شيء من اليهودية . وفي الواقع كل هذه العناصر عملت على تكوين التصوف الاسلامي .

### كارا ديه ثو

التصوف الاسلامي هو في حقيقته ظل من ظلال المسيحية ، هو هرب مطلق من الدنيا ، ومن الجاه ، ومن المال . . .  
 الصوفية جنوا على المسلمين ابشع جناية حين حبوا اليهم الزهد ، وبفضوا اليهم المال . الصوفية هم الذين جعلوا المسلمين اخر الشعوب ، وهم الذين قضوا عليهم بالاستعباد ، وهم الذين اوردوهم موارد الذل والضم والهوان .  
 ان اول صوفي تعمق في البحث عن عيوب النفس . . . هو الحارث المحاسبي ، وهذا الرجل الذي كان قدوة لجميع الصوفية كان من اعداء المال . . . وكان رجلاً مسيحي التزعة .

### الدكتور زكي مبارك

(١) قال ابن الجوزي : لبس ابليس على جماعة من المتصوفة ، فنههم من اعتزل في جبل كالرهبان ، يبيت وحده ، ويصبح وحده ، ففانته الجمعة والجماعة ومخالطة اهل العلم .

## معالم صوفية

الحسن البصري (٣١ - ١١٠ هـ) = (٦٤١ - ٧٢٨) :

احتقر حسن العالم ، وخاف الحساب ، فاذا به زاهد محزون ، قضى ،  
على ما يروون ، اربعين سنة لم يضحك فيها مرة . ترك مواعظ هي من  
ابلق خطب الاسلام دعا فيها الى طرح الزياء ، وتنقية القلب وخوف الله  
وذكره . قال المكي : « كان الحسن اول من انهج سبيل هذا العلم ،  
وفتح الاسنة به ، ونطق بجمانيه ، واظهر انواره ، وكشف قناعه . »

من اقواله :

— طول الحزن في الدنيا تليح العمل الصالح .

— ما لهم اکتوا الكبر في قلوبهم ، واظهروا التواضع في لباسهم ؟  
والله لاحد هم اشد عجباً بكسائه — كساء الصوف — من صاحب  
المطرف بطرفه ! .

— ابن آدم ، انك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث  
وحدك ، وتحاسب وحدك . ابن آدم ، انت المعني واياك يُراد .

— الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

— النية ابلى من العمل .

— حادثوا هذه القلوب فانها سريعة الدثور .

— اذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت نعيمه ولذته في  
ذكرتي . فاذا جعلت نعيمه في ذكرتي ، عشقني وعشقتني ، فاذا عشقني  
وعشقتني رفعت الحجاب بيني وبينه .

الحارث المحاسبي (١٦٥-٥٢٤٣) = (٧٨١-٨٥٧) :

ولد في البصرة ، وعاش في بغداد ، ولقب بالمحاسبي لمحاسبة نفسه على آثامها .

في كتابه « الرعاية لحقوق الله والقيام بها » يدعو الى التوبة ، والزهد ، والاخلاص ، ومقاومة العُجب والرياء ، ومحاسبة النفس ، وتفهم كلام الله .

كتابه « الوصايا » اعتراف سيوحي للغزالي منقذه : رأى انقسام المسلمين الى ٧٢ فرقة ، وسبب انقسامهم في اتباع الهوى ، ودواؤه في الفضيلة ، والفضيلة عند الصوفية ، فسار على طريقتهم : « وجدت فيهم دلائل التقوى والورع ، وايشار الآخرة على الدنيا ، ووجدت ارشادهم ووصاياهم موافقة لائمة الهدى ، مجتمعين على نصح الامة ، لا يرخصون لاحد في معصية ، ولا يقنطون امراً من رحمة ، يأمرون بالصبر على البأساء والضراء ، والرضى بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحبون الى الله العباد يذكرونهم ايديه واحسانه . »

ومن اقواله :

— ايها المقتون، متى زعمت ان جمع المال الحلال اعلى وافضل من تركه فقد ازريت بخمد والمرسلين ، وزعمت ان محمداً لم ينصح الامة اذ نهاهم عن جمع المال ، وقد علم ان جمعه خير لهم . وما ينفعك الاحتجاج بالصحابة ؟ وذا ابن عوف يوم القيامة ان لم يوث من الدنيا الا قوتاً .

— ان اول المحبة للطاعات منتزعة من حب السيد تعالى اذ كان هو المبتدئ بها ، وذلك انه عرفهم نفسه ودلهم على طاعته ، وتجب اليهم على غناه عنهم ، فجعل المحبة له ودائع في قلوب محبيه .

ذو النون المصري ( ١٨٠ - ٢٤٥ هـ ) = ( ٧٩٦ - ٨٥٩ ) :

تكلم كثيراً عن الحب ، ورتب « الاحوال والمقامات » الصوفية ،  
وذلك بلغة كثيرة التشابيه والرموز .  
سمع مرة قوالاً ينشد :

صغير هواك عذبي فكيف به اذا احتنكا  
وانت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا  
اما ترثي لمكتئب اذا ضحك الخلي بكى

وكان يبيجه السباع ، فقام ، وسقط على وجهه ، والدم يقطر منه .  
شجبه الفقيه المالكي المصري عبدالله بن الحاکم ( † ٢١٤ هـ = ٨٢٩ )  
لتعاليمه الصوفية في الجماهير ، وواقفته السلطة في آخر حياته وارسلته الى  
بغداد حيث سجن مدة الى ان اطلقه الخليفة .

بعض اقواله :

— الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء ، فأآثرهم على كل شيء . .  
— ان لله عباداً نصبوا اشجار الخطايا نصب اعينهم ، وسقوها بماء  
التوبة ، فآثرت ندماً وحزناً ، فجنوا من غير جنون ، وتبدلوا من غير  
عبي ولا بكم ، وانهم لهم البلغاء والفصحاء العارفون بالله وبرسوله . ثم  
شربوا بكاس الصفا ، فورثوا الصبر على طول البلا . ثم تولت قلوبهم  
في المملوكوت ، وجات فكرهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا  
تحت رواق الندم ، وقرؤوا صحيفة الخطايا ، فاورثوا انفسهم الجرع حتى  
وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ،  
واستلنوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحب النجاة وعروة السلامة ،  
وسرحت ارواحهم في العلى حتى اناطوا في رياض النعيم . وخاضوا في  
بحر الحياة ، وردموا خنادق الجرع ، وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا

بفناء العلم ، واستقوا من غدیر الحکمة ، وركبوا في سفينة العطفية ،  
واقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ،  
ومعدن العز والكرامة .

— تمیتُ ان اراك ، فلما رأيتك غلب دهشة السرور فلم املك  
البكاء .

— بينما اسير في انطاكية اذ انا تجارية كانها مجنونة ، وعليها جبة  
صوف ، فسلمت عليها ، فردت عليّ السلام ثم قالت : الست ذا النون  
المصري ؟ فقلت عافاك الله كيف عرفتني ؟ فقالت عرفتك بمعرفة حب  
الحيب .

— بينما انا مار في شوارع مصر ، اذ رأيت جارية مسفرة بغير خمار ،  
فقلت لها : يا جارية ! اما تستحين ان تشبي بغير خمار ؟ فقالت : يا ذا  
النون ، ما يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصرار ؟ فقلت ومن اي شيء  
علاه الاصرار ؟ قالت : من محبته . قلت : يا جارية ، عساك تناولت  
شيئاً من شراب القوم ! فقالت : اسكت يا بطل ! شربت بكاس  
وده وغت مسرورة ، فاصبحت بحب مولاي مخمورة .

5

ابو يزيد البسطامي ( ٢٦١ هـ = ٨٧٤ )

متقشف متطرف في تقشفه ، وزاهد مثال الزاهدين .

نسب الى نفسه معراجاً كعراج النبي فنفي مرات .

له اقوال يتصف فيها بصفات الله .

بقي له نتف مبعثرة منها :

— كنت اثنى عشرة سنة حداد نفسي ، وخمس سنين مرآة قلبي ،

وسنة انظر فيما بينها ، فاذا في وسطي زناظر ظاهر فعملت في قطعه اثنى

عشرة سنة ، نظرت فاذا في باطني زنار فعملت في قطعه خمس سنين  
انظر كيف اقطع فكشف لي ذلك ، فنظرت الى الخلق فرأيتهم موتى ،  
فكبرت عليهم اربع تكبيرات .

— ان الله سبحانه وتعالى كفاني مؤونة النساء حتى لا ابالي استقبلتني  
امرأة او حائط .

— احببت الله حتى ابغضت نفسي ، وابغضت نفسي حتى احببت طاعة الله .

— طلبت قلبي ليلاً من الليلي فلم اجده ، فلما كان في السحر سمعت

قائلاً يقول : يا ابا يزيد ، هوذا تطلب غيرنا !

— من قتلته محبته فديته رؤيته ، ومن قتلته عشقه فديته منادته .

— الجنة هو الحجاب الاكبر ، لان اهل الجنة سكنوا الى الجنة ،

وكل من سكن الى الجنة سكن الى سواه فهو محبوب .

ان لله خواصاً من عباده ، لو حججهم في الجنة من رؤيته ساعة

استغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث اهل النار بالخروج من النار .

— ان آدم باع حضرة ربه بلقمة .

— تالله ان لوأئي اعظم من لواء محمد ، لوأئي هو من نور تحته الجن

والانس كلهم مع النبيين .

— لئن تراني مرة خير لك من ان ترى ربك الف مرة .

— دخل ابو يزيد مدينة فتبعه منها خلق كثير ، فالتفت اليهم فقال :

اني انا الله ، لا اله الا انا ، فاعبدوني ! فقالوا : جن ابو يزيد ! فتركوه .

— اراد موسى ان يرى الله تعالى ، وانا ما اردت ان ارى الله

تعالى ، هو اراد ان يراي .

— طاعتك لي يا رب اعظم من طاعتي لك .

— سبحانه ما اعظم شأنى !

الحسين بن منصور الطلاج (٢٤٤؟-٥٣٠٩هـ) = (٨٥٨؟-٩٢١) :

ذروة المتصوفين ، وشهيد الاتحاد بالله .

بعد خلوة في بغداد امتدت الى سنة ٢٦٠ هـ ، خرج الى الدعوة يعظ الزهد والتصوف في خراسان والاهواز والهند وتركستان . وعاد الى بغداد سنة ٢٩٦ هـ فذاع صيته ، وكثر تابعوه ، وانتشرت اقواله الحلولية من مثل « انا الحق » ، فاوقفته السلطة العباسية ، وسجنته ، وحاقته ، ثم جلده وصلبته ، ثم قطعت رأسه واحرق جسده . قال ابراهيم بن فاتك : « لما اتى بالحسين بن المنصور ليصلب رأى الحشبة والمسامير فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه ، ثم... ذكر اشياء لم احفظها ، وكان مما حفظته : اللهم ... بحق قدمك على حديثي ... ان ترزقني شكر هذه النعمة التي انعمت بها علي ، حيث غيبت اغياري عما كشفت لي من مطالع وجهك ، وحرمت علي غيري ما ابحت لي من النظر في مكنونات سرّك ، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك ، وتقرباً اليك ، فاغفر لهم ، فانك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت . فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد . ثم سكت وناجى سرّاً . فتقدم ابو الحارث السيف فأنطمه لطمه هشم انفه ، وسال الدم على شبيهه . . . وكادت القننة تهيج ففعل اصحاب الحرس ما فعلوا . »

له مقاطع شعرية عديدة اليك بعضها :

- ١ -

اقتلوني يا ثقائي      ان في قتلي حياتي  
ومماتي في حياتي      وحياتي في مماتي  
ان عندي محور ذاتي      من اجل المكرمات



وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات  
 فاقتلوني واحرقوني بعظامي الفانيات  
 ثم مروا برفاتي ، في القبور الدارسات ،  
 تجدوا سر حبيبي في طوايا الباقيات !

- ٢ -

والله ما طلعت شمس ولا غربت  
 ولا خلوت الى قوم احدتهم  
 ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً  
 ولا هممت بشرب الماء من عطش  
 ولو قدرت على الاتيان جئتكم  
 الا وجبك مقرون بانفاسي  
 الا وانت حديثي بين جلاسي  
 الا وانت بقلبي بين وسواسي  
 الا رأيت خيلاً منك في الكاس  
 سعيماً على الوجه او مشياً على الراس !

- ٣ -

كانت لقلبي اهواء مفرقة  
 تركت للناس دنياهم ودينهم  
 فاستجمعت مذراتك العين اهوائي  
 شغلاً بجبك ، يا ديني وديني

الحب ، ما دام مكتوماً ، على خطر  
 واطيب الحب ما تم الحديث به  
 وغاية الأمان ان تدنو من الحذر  
 كالنار لا تأتي نفعاً وهي في الحجر !

- ٤ -

تفكرت في الاديان جد تحقرو  
 فالفيتها اصلاً له شعباً جمّاً<sup>(١)</sup>

الا ابلغ اجبائي باني  
 على دين الصليب يكون موتي  
 ركبت البحر وانكسر السفينه  
 ولا البطحا اريد ولا المدينه !

(١) ويروى عن الخلاص قوله : « الاديان كلها لله عز وجل ، شغل بكل دين طائفة . . . الاديان هي القاب مختلفة واسام متغايرة ، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف . »

عجبت منك ومني يا منية التمني  
ادنينني منك حتى ظننت انك اني  
وغبت في الوجدتي افنينني بك عني

واي الارض تحلو منك حتى تعالوا يطلبونك في السماء  
تراهم ينظرون اليك جهرا وهم لا يبصرون من السماء

يا بديع الدل والغنج لك سلطان على المهج  
ان بيتاً انت ساكنه غير محتاج الى السرج  
وجهك المامل حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج ا

قد تصبرت وهل يصبر قلبي عن فؤادي  
مازجت روحك روحي في دنور وبعاد  
فانا انت كما انك اني ومرادي

مزجت روحك في روحي كما تخرج الحمره بالماء الزلال  
فاذا مسك شي، مستني فاذا انت انا في كل حال

انا من اهوى ومن اهوى انا نحن روحان حللنا بدنا  
فاذا ابصرتني ابصرته واذا ابصرته ابصرتنا

مثالك في عيني، وذكرك في في ومثواك في قلبي فاين تعيب؟

## التصوف الاسلامي

التصوف الاسلامي اعراض عن الارض في نشأته ، ومناجاة روحية تملئ في اوجه ، وشعور تحجر او ضل في عصوره المتأخرة ، وكاننا اذ نريك هذا التصوف في لمحة تاريخية ، لا نتعدى رسم الحدود بين هذه المراحل الثلاث ، واضعين امام عينيك معالم ، تهتدي بها في سيرك المتشعب الشاق .

### ١ - النشأة

قال ابن خلدون : « اصل الصوفية العكوف على العبادة ، والانقطاع الى الله ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخاوة للعبادة . وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف . »

هو الدين الجديد بث في النفوس خوف القدير ، ورهبة العقاب ، ورغب الناس في عبادة الرحمان وهناء النعيم ، ودعا الخلق الى تسبيح ربهم ليل نهار ، فاذا نفوس تخاف عدل الله الصارم ، وترهد في هذا العالم الفاني ، فتصرف الى نفسها تحاسبها على اثامها وتنقيها من عيوبها ، وتصرف الى ربها تناجيه في سكون الليالي ، وتتفهم وحيه في هدوء الوحدة ، حتى اذا ارضت نفسها من الصلاح ، وربها من التسبيح ، انصرفت الى غيرها تحاجهم في جهنم للدنيا ، وتذكركم بنواهي الله ، وتدعوهم الى ما دعاها اليه ، شارحة لهم آيات الوحي ، مبردة على مسامعهم احاديث الاخرة ، ساكبة امامهم دموع التوبة . هذه كانت عبادة السلف في القرنين الاول والثاني ، شأن حسن البصري والحارث المحاسبي وغيرهما ، ينفردون ويصلون ويتأملون فيدعوهم الناس زهاداً وعباداً ونسكاً ، او هم يشرحون ويعظون ويبكون فيدعونهم قراء وقصاصاً وبكائين .

وهو ظمأ القلب البشري قلما رواه مخلوق.

يجيء الانسان هذا العالم ابناً من بني البشر ، فيه الى السعادة جنين الليل الى النور ، وله في اللذة نهم الغناء الى الرقص . ويسير في هذا العالم ، تسحر الالوان عينيه ، وتموج لبسته الدنيا ، فيتيه كالنشوان ، ويرقص ، ويعربد . ثم يطغى عليه الغرور ، فيسط ذراعيه في الفضاء . ليضم الدنيا الى صدره ، شأنه شأن الطفل الذي يد يده ليطال القمر . ويتأدى به الوهم فيخال الدنيا بين ذراعيه ، ويخاله ملك الدنيا ، فيبلغ ثله اقصاد ، ويغيب في حلم رحب ، تضيق به الدنيا الرحبة ، ويضيق به خياله ، وتضيق به قواه .

ولكن ما اوهى اجلام الدنيا ، وما اقسى يقظة المخدوع . هي خيبة او ملل ، واذا احلام هذا المقتون تراب منشور يتذرى شحوباً في لونه ، ومرارة على شفتيه ، واذا هو دهش مذعور كضائع في خربة ، لا يرى حوله سوى اشلاء ماضيه ، وبقايا اماله ، واذا به يائس ناقم ، يلعن التراب الذي جبل منه ، والارض التي جبلت به ، ويضج قلبه بالحدق والبغضاء ضجة كل قلب مخدوع .

لقد غرته الدنيا ، وصرفته عن عالم الحق ، فانقاد لها جهلاً ، واحبها انما . ألا طالما انذره صوت داخلي بسوء مصيره ، ودعاه الله الى سماع نحيواه ، وورود مناهله ، فاعرض ولم يعر . اما الان وقد تبددت الاوهام ، وتمزقت الستور ، فسيعود هذا المغرور من سفره الارضي العقيم ، ويعد سفرًا جديدًا الى عالم جديد .

انه سينصرف الى قلبه فيعريه من كل ميل ، وكل ذكرى ، وكل اثر ، ويجرره من حبال الشهوات الارضية ، فينتزعها منه انتزاعاً ، ويستأصلها استئصالاً ، وان آلمه الانتزاع ، وادماه الاستئصال . . . اما عيناه فلن تنهلا بعدُ النور الحُداق ، بل سينغمضها عن هذا العالم الخارجي ،

ويعود بهما الى قلبه يراقبه ويحاسبه ، يشذبه ويصفيه ، الى ان يعود كما خرج من يد الله ، ليس فيه غير الشوق الى وجهه .  
وكان عنا . وكان دعاء ، واذا انسان جديد يستيقظ فيه ، وروح جديدة تدب في عروقه .

الا انظره اكل اشواقه الارضية قد ماتت . لقد زهد في المال ، وآثر الفقر والصوم والجوع ، وتوكل على ربه في تدبير شأنه . وقد زهد في اللباس ، فطرح الزينة ، وفضل الحشن ، واكتسى الصوف رداء عادياً . وقد زهد في الناس ، فاعتزل الناس ، لا يرجو منهم عوناً ، ولا فيهم عزاء ، وربما زهد في الزوج والولد ، وآثر التبتل<sup>١</sup> ليتفرغ الى نفسه والى ربه . قد يطلب منه هذا التبتل جهداً ، وقد يجره الجهد الى التشويش والكآبة ، ولكنه يفضل جهداً ينقيه ، وكآبة يستقر عليها . . .  
حتى اذا تعذر الاستقرار خرج سائحاً تائباً ، يقاسي حر العناصر ويردها ، ويقاسي جوع السفر وعناؤه ، ويجهد هذا الجسد الى ان يعرّيه من منى الدنيا ويعده للسفر الى الله ، منية القلوب والاجساد .



هو الدين بعث الخوف في القلوب ، او الدنيا لم تملأ فراغها ، فانصرفت الى ربها عابدة زاهدة ، ترجو منه غفراناً واليه بلوغاً .  
تلك كانت اول خطوة خطاها الصوفي نحو كماله ، فيها من الحمية والرهبنة ، وفيها من الزهد والتوبة ، وفيها صبوة بعيدة الى الجمال الباقي ، الى عناق الالوهة في ذروة الفناء .

(١) التبتل دخيل مسيحي . روى ابن الجوزي الحديث التالي : دخل على النبي رجل يقال له عكاف ، فقال له النبي : يا عكاف ، هل لك زوجة ؟ قال : لا . قال : ولا جارية ؟ قال : لا . قال : وانت موسى بنخير ؟ قال : وانا موسى . قال : انت من اخوان الشياطين ، لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم . ان سنتنا النكاح .

ولكن اين الله ، وكيف السبيل اليه ؟

ان اهل الشرع قد وضعوه بعيداً ، وراء الغيوم الكثيفة ، ووراء النجوم ، رباً لا يدانى وروحاً لا يحس . اما الطريق اليه فقد حددوها بشرائع ، ونظموها بقوانين ، كأن النفس لم تتحرر من قيودها الارضية الا لتقع في قيود جديدة .

لا ان الصوفي لن يتقيد ثانية بقيود البشر ، ولن يرضى الا عن قيد الخلق يرضه الى ربه في وحدة الوجود الشامل ، وعن قيد الحب يجمعها معاً في دهشة القلب الريان .

ولهذا لم يعد الصوفي يفتش عن الله في السماء ، او يسير اليه بالشرائع والقوانين ، بل عاد الى قلبه يضرم فيه الحب ، ليرى على نوره وجه ربه فيه .

لم يعد قرآنه وضوءاً وتشريعاً ، او ترغيباً بثمار الخلد وحوره ، بل اصبح حديث ربه اليه ، وكلامه معه ، يردده بلسانه وكأن الله يناجيه .

تأمله جالساً في خلوة ، وقد غابت الدنيا عن قلبه وعينيه ، يفتح كتابه ويقرأ : « يا ايها الذين آمنوا ، اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة واصيلاً . » ( ٣٣ : ٤٠ - ٤١ ) . ثم انظره وقد طوى كتابه ، وغض بصره ، وسوى جلوسه ، وبدأ يذكر ويسبح . هو اسم الله او بعض صفاته ، يردده لسانه ما امهله الكلل ، فتموج شفتاه موجات كلماته ، وتحقق انفاسه خفقات الهائمين ، ويتأيل جسده ورأسه على همس صوته وانفاسه ، فكأنه مغزف استوت اوتاره ، وتلاءم نغمه ، وكأنه لم يأت الوجود الا ليغني اغنية الحب لباري الوجود . . . يا لطيف . . . يا رحيم . . . سبحان الله . . . لا اله الا الله . . . لا اله

الا هو... يردد احدى هذه الكلمات عشرات المرات ، ومئات المرات ،  
ويقف اخيراً على اسم الله يردده وحده ، ويتأيل برأسه الى اليمين ، ثم  
الى اليسار ، ثم نحو قلبه : الله ، الله ، الله ، الله ، الله ، الله ، الله...  
لسانه يتكلم ، ورأسه يتأيل ، وقلبه يتفهم ، وكله بالله مخمور :

مثالك في عيني ، وذكرك في فمي ، ومشواك في قلبي ، فأين تعيب ؟  
وقد لا يكون هذا الصوفي وحده ، بل في صجة من امثاله او  
تابعيه ، فيتخذ « الذكر » شكل جوق ، اوتاره قلوب خفاقة ، ونغماته  
اصوات تتراجع وتمتد ، وتستطيل ، اما لحنه فواحد هو حب الله ، والسكر  
بالله : يا لطيف ، يا لطيف ، يا لطيف ...

وقد تمل هذه القلوب عبارات القرآن ، فتستريح لنفسها عبارات  
الغزل ، تنتقل بها من الحب البشري الى الحب الالهي ، وتستريح لاصواتها  
الغناء بهذا الشعر الغزلي ، فيعلو في نشوة الذكر صوت رخم بعيد المدى :

انا من أهوى ومن أهوى انا نحن روحان حللنا بدنا

ويعود الصوت متماوجاً ، متناقلاً ، ولهان ، - وقد ترجعه الضلوع  
اصداء حب قديم - فاذا الاعطاف تترنج ثم تضطرب ، واذا الايدي  
تتهادى ثم تصفق ، واذا الاوصال اوراق صفعها الريح ، واذا الاجساد  
تنهض مائسة متخطرة ، ثم تسرع هازجة راقصة ، ثم تدور في الحلقة  
ذهاباً واياباً ، وتعمر الجميع موجة من الطرب طالما جنى عليها الزهد ،  
ويستسلم الجميع لثورة من المادة طالما ذلها الروح ، ويبلغ « الوجد »  
اقصاه ... وصوت القوال يراجع للمرة العشرين بصوته الرخم الوهان :

انا من أهوى ومن أهوى انا !

ويظل الصوفي يصفق ويرقص ويدور ، والعرق يتصبب من جبينه  
ولحيته ، وحرارة الحركة تزيد حرارة القلب ، والطرب يستخف الجسد

ويفقد الهدى ، واذا به يترع ثيابه ، ثم يعبث بها رميةً وتقريباً ، واذا بالكل يقتدون به لياقةً وصداقةً ، واذا اجسام عارية تدور وتدور وتدور ، والقوال يكمل بيته :

نحن روحان حللنا بدنا .

تهب الزوبعة في الصحراء ، فتثير الغبار ، وتسير به ، وترتفع وتدور ، وتدور ، ولكنها في اقوى ثورتها تصبو الى الجحود الذي خرجت منه ، ولا تلبث ان تنحل فجأةً وتندثر على الحضيض هباءً منثوراً . هكذا تلك الاجسام النشوى لا تلبث ان تكل ، وتلك الرؤوس ان يستبد بها الدوار ، فاذا بالعاصفة تلين ثم تهدأ ، واذا بالاوصال تتماهل ثم تقف ، واذا بالاجساد تحتر على الحضيض الذي نهضت منه ، تريد راحة لقلبها الحفوق ، وانفاسها المتقطعة ، وعروقها النباضة .

ها السكون يعود رويداً رويداً الى الحلقة ، تقطعه من آن الى آن زفرات وشهقات ، وتلونه بين الحين والحين تممات لا واعية : الله ، الله ، الله . . . انا من اهوى ومن أهوى انا . . . ثم يعود الهدى الى هذه الرؤوس ، ويقف الاضطراب ، وتحمد النشوة ، ويحس الصوفي بشيء من البرد فيبدأ يفتش عن ثيابه يلبسها ، ويعود ثانية الى عالمه الارضي الذي خرج منه لحظة .

انها قد كانت نشوةً لذيذة ، لم يشعر بها يوماً خلال مجاهداته الماضية ، وتأملاته الطويلة ، نشوة خارقة لم تكن لتخطر على قلبه ، وها هي قد غابت تاركة حسرة الفوات.<sup>١)</sup>

١) لا تزال حلقات الذكر امرأ مألوفاً لدى الطرق الصوفية ، وقد وصف لنا الريحاني ، في كتابه ملوك العرب ، احدى هذه الحلقات قال :  
« توفي . . . يومئذ شيخ الطريقة المرغنية ، فاشتركت الطرق كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المصلين . . . »



ما هذه الحالة ؟ ليست هذا القرب من الله الذي يغيب عنده كل محسوس وهذا الدنو من الله الذي تهوي عنده الحواجز ، وحلول الله في القلب الذي انصرف بكليته اليه ؟

الم يكن يردد في نشوته « انا من اهوى ومن اهوى انا » ، أو لم يكن على ثقة مما يقول ؟

ولماذا لا يكون رأى نور الله ؟ ولا يكون حل الله فيه ؟ اليس كل وجود من الله ، وكل موجود قائماً بالله ، يعمل فيه ما يشاء ؟ الم يصعد النبي في معراجة الى السماء ، الى المسجد الاقصى ؟ بلى ابلى ! . .

وقفت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء الاخر ، ووقف الشيخ احد ابناء الفقيد في وسطها فحركها باسم الله . بدأ بصوت هادئ و اشارة لطيفة ، بدأ بـ « لا اله الا الله » . فمالت الحلقات الى الامام ، ومالت الى الورا ، وراحت تكررهما وتردد الشهادة . وكان صوت الاربعة مصلي وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعة مجلي وكأنها حركة واحدة ، يتدرجان مرعة وهياجاً ، عملاً بلهجة الشيخ و باشارة يناه ، وهو يجول في الحلقة مستحثاً محرصاً .

الا الله ! وضرب كفاً على كف ، فرددت الحلقة : الا الله ! بسرعة لمح البصر ، ثم امست كأنها نصيح : لله لله ، وسكنت فجأة كمن اغمي عليه . ثم عادت تدرجياً الى الميزان الاول في الصوت والحركة : لا اله الا الله .

وجلس الشيخ ، فقام اخر يثب وثباً ويقول : حَيْمٌ قَيْمٌ ( اي حيّ قيّوم ) . شرعنا نتقدم هياجاً . دخلنا في دور الزبد والرغاء . حَيْمٌ قَيْمٌ ! وتحركت الحلقة حركة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ، ثم نطجاً في الجو . واستمرت في حَيْم قَيْم نصف ساعة ، والشيخ يثب في وسطها ويلجج ، ويصفق كفاً على كف كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى . وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في « الحال » .

ثم نهض ولد لا يتجاوز الثانية عشرة ، وهو اصغر اولاد الفقيد ، فبدأ حيث

لقد رأى الصوفي ربه ، وحل ربه فيه ، فلا سبيل الى الريب ا واي  
 غرابة اذاً ان يكون للبسطامي معراج كمعراج النبي ، وان يحل الله فيه  
 فيقول « سبحاني » ، وان يحل في الحلّاج فيهتف « انا الحق » او يتغنى  
 في وجده :

يا نسيم الريح قولي للرشا لم يزدني الورد الا عطشا  
 لي حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشي على خدي مشي  
 روحه روحي وروحي روحه ان يشا شئت وان شئت يشا

ألا ارتب ما شئت في صحة دعوى الحلّاج ، ولكنك لن ترتب في  
 اخلاص رجل تسجنه السلطة العباسية ثمانى سنوات فلا يلين ، ويحاكمونه  
 سبعة اشهر فلا يرتدع ، ويصدر الامر بقتله فيقاسي الجلد ، وقطع  
 اليدين والرجلين ، وصلباً على جذع.

انتهى اخوه . وكان يتلوى كالكسكران ، ويرقص نارة ويثب طوراً كالمجنون .  
 مثل الولد دوره تمثيلاً ادهش حتى الذين الفوا الحلقات ومدهشاتها ، واضحكهم  
 كذلك . كهرب الولد الحلقة . اضرم فيها النار . قبض على ما تبقى من رشدها ،  
 ورماه خارجاً . صاح بها فرددت الصيحات ، ولم نعد نفهم ما يراد . الا انها اشبه  
 بالانين ، كأن الاربعائة رجل اصابوا بألم شديد فأتوا انة واحدة .

وبدأت تظهر كرامات الشيخ . هوذا عبد امسى جامداً ، فرفعه اثنان فوق  
 رؤوسهم واخرجوه . وذاك ، وقد خرج من الحلقة فراح يدق رأسه بالحائط ، فسقط  
 صريعاً مغمى عليه . وهاك من ينبغي الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد ،  
 فامسكه رفيقاه ، فتلفت منها وضرجهما ، ووثب وثبة هائلة ، كان العمود ورأسه  
 خاتمها المفجعة . حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد .

بدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيه . سقط امام الولد الزعيم ، في وسط الحلقة ،  
 شيخ لحيته بيضاء طويلة ، والزبد يسيل من فيه عليها ، فوثب فوقه ، ولم يأبه له .  
 وهذا اخر يخلع ثيابه :

والحلاج في نظرنا اكمل مثال على ما وصل اليه الثمل الروحي ،  
 وادركه التصوف الاسلامي ، في القرن الثالث الهجري .

لقد تدرج العابد من التوبة عن الخطايا والزهد في العالم ، الى ذكر  
 الله وصفاته تفكيراً وتسييحاً ، فالغناء بآيات الوحي واشعار الحب يهاديه  
 الوجد الراقص ، فالغيوبة الكبرى والفناء في الالوهة ، مع ما يرافق  
 ذلك من شطح<sup>١</sup> متطرف ، ويتبعه من اضطهاد منتظر .

هو القلب البشري بعد ان تفرغ في القرنين الاولين من حب الدنيا ،  
 وثورات الشهوة ، وثب في القرن الثالث الى الملام الاعلى يعني فيه حب  
 الهه ، ووصال باريه ، ناعياً على البشر غفلتهم ، مستغفراً همهم . وعجز  
 البشر عن اللحاق به فكفروه ، واشخصوه امام محاكمهم تطرحه في  
 سجونهم ، او ترفعه على صلبانهم ، لينتقموا من هذا الاحق ، الهازئ  
 بحكمتهم ، الثائر على شرائعهم .

### ٣ - الانحطاط

على ان الاضطهاد لم يمت يوماً تزعة روحية ، وصلب الحلاج ما اخاف  
 او ردع .

انما الحلاج كان ذروة ، وبعد كل ذروة واد .

« خلعت عذارى واعتذاري لابس ال خلاء مسروراً بجلي وخليتي »

رمى بعامته وبيته وبدثاره الى الارض . فاوقفوه عند هذا الحد ، واخرجوه في  
 شعاره من الحضرة الروحانية . استجرنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطاهرة : يا  
 لطيفة ، يا شريفة ، يا كريمة ابي حنيفة ، يا مسكته العباد ، ومنطقة الجاد ، يا ربه  
 الحال ، وسراج الترحال ، قني ، والطني ، لانقتلينا بالكرامات ، لا تسكرينا  
 بالشعوذات ، ولا تؤاخذني شيوخ الطرق والحلقات ، امين ، امين .

(١) الشطح كلام يعني ان الصوفي والله واحد ، من مثل « انا الحق » .

ان الشعور الروحي ، اساس كل تصوف ، يبدأ صاخباً جامحاً ، ثم تحفف من اندفاعه الايام ، ويمد اليه العقل يده ، فيدب اليه الهمود ، ويدب التحجر ، ويعقب الانحطاط .

وان العقل تناول التصوف باسم المنطق ، فاذا اكثر الصوفيين يتخذون الحلول اصلاً ، ويتطرقون منه الى اغرب النتائج :

ان الصوفي ، وقد اتحد بربه ، لفي حل من الشريعة ، من الاوامر والنواهي ، يكفيه الحب ديناً ، والسعي الى لقاء الله فرضاً . وما دعوى الفقهاء ، ان اباح الله لاوليائه ما يجرمه على الجماعات ؟

وان الله قد يصطفي اجساماً يسكنها ، وحسناً يتجلى فيه ، فلم لا يكون حب الوجه الحسن حباً لله<sup>(١)</sup> ، والنظر الى المرد سبيلاً لاثارة الوجد بريئاً ؟ وان الالهام الصوفي لعلم رباني ، يغدقه الله على اوليائه حين يفنون فيه ، وهو يفوق كل حكمة الفلاسفة ، وكل علم المتكلمين ، فلم التعلم ، ولم عناء العقل ؟

وهكذا افسد العقل على هؤلاء الصوفيين الطريقة ، بل قل افسدتها الاهواء ، التي تطغى على العقل وتقويه ، فاذا سلوك التصوف طلب للذة او استباحة هوى .

كان الوجد وسيلة يراد بها الاتصال بالله ، فاصبح لذة تطلب لذاتها ، واصبح السماع والرقص ضرباً من ضروب اللهو<sup>(٢)</sup> ! قال ابن الجوزي

(١) قال ابن طاهر ، وكان يذهب مذهب الاباحة ، ويميز النظر الى المرد : رأيت جارية في مصر مليحة ، صلتى الله عليها وسلم ! فقيل له : نصلي عليها ؟ فقال : صلتى الله عليها ، وعلى كل مليح ! ( عن ابن الجوزي )

(٢) قال ابو العلاء :

(١٠٩٧ هـ = ١٢٠٠) : « التصوف طريقة كان ابتداءها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون اليها بالسماع والرقص ، فمال اليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال اليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب . » وهكذا اصبحت الحلقات الصوفية مهازل روحية كثر فيها تمزيق الثياب والزعيق والغشيان ، واصبح الصوفي ، على قول الشاعر :

يئن اذا اومضت رنة ويزأر منها زئير الاسود

وكان تبتل بعضهم احتقاراً للذات الجسد ، وتفرداً للتعب ، فاذا به ، على رأي ابن الجوزي ، نوع من « تلبس ابليس » جرّهم به الى صحبة الاحداث من المريدين ، فالميل اليهم ، مع ما يتبع ذلك من جنائية على الطبيعة والاخلاق مآلاً .

وكان الصوفي يرغب عن الجاه ، ويطرح الكبرياء ، لانهما الى الاثم دافع وطريق ، فاذا ببعضهم يرون في ارتكاب الاثم وسيلة الى طرح الجاه<sup>١)</sup> ثم كان الاقبال على التصوف ، وكانت الجمعيات الصوفية ، وكان ما يتبع اقبال الجماعات على الكمال من تعثر وتدهور<sup>٢)</sup> .

---

ارى جيل التصوف شر جيل فقل لهم - واهون بالحلول ! -  
أقال الله حين عبدتموه كلوا اكل البهائم وارقصوا لي !

(١) قال ابن الجوزي : « وفي الصوفية قوم يستون الملامتية اقتحموا الذنوب وقالوا : مقصودنا ان نسقط من اعين الناس فنسلم من الجاه . »

(٢) منذ القرن الرابع الهجري بدأ بعض المتصوفين يعيشون في جماعة . وفي القرن السادس تكونت الجمعيات الكبرى وانتشرت . وكانت هذه الجمعيات تتميز بعقائد وطقوس وانظمة ، انما تشارك جميعها في وجود شيخ على رأسها يقبل الاحداث المريدين ، ويرشد الجميع في سلوك الطريقة ، وطلب الكمال .

وهكذا انحط التصوف ، لان الشعور الروحي الذي غذاه قد جفَ  
مع الايام ، ولان العقل حاد به عن مجراه الاصيل ودفع به الى التجبر ،  
ولأن اكثر من اقبلوا عليه ما كانوا اهلاً ليسلكوه .

ولعل ابن الفارض خير مثال على صوفي انتابه من عوامل الانحطاط  
ما انتاب معاصريه ، وسمت به روح اغنى من ارواحهم ، فظل مضطرباً ،  
قلقاً ، يغالي في التواجد ويصون النفس ، يحب الجبال ويمارس الزهد ،  
يقول الحلول ولا يصبح الله ، تارة تختلط لديه الارض والسماء وطوراً  
تفترقان ، مما شوقنا الى درسه ، واغرانا بتحليل نفسيته وتقهم روحه .

---

# ابن الفارض

١٢٣٤ - ١١٨٠ هـ = ٦٣٢ - ٥٧٦ م

دراسة - شعر مختار







بجعة

عمر بن الفارض



## ترجمته

لخفيده

« قال الفقير المعترف بذنبه . . . علي سبط الشيخ ابن الفارض . . .  
اخبرني سيدي ولده . . . قال :

« كان الشيخ ، رضي الله عنه ، معتدل القامة ، وجهه جميل حسن مشرب بحمرة ظاهرة ، واذا استمع وتواجد وغلب عليه الحال ، يزداد وجهه جمالاً ونوراً ويتحدر العرق من سائر جسده حتى يسيل تحت قدميه على الارض ، ولم ار في العرب ولا في العجم مثل حسن شكله ، وانا اشبه الناس به في الصورة . وكان عليه نور وخضر ، وجلالة وهيبة ؛ ومن فهم معاني كلامه دلته معرفته على مقامه ، ومن اختصه الله بحبته وانسه يعرف المحب بين اهل المحبة من جنسه ، وقد جعل الله المحبين خزائن اسراره المصونة ومعادن قوله تعالى « يحبهم ويحبونه » . وكان اذا مشى في المدينة ، تردح الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، ويقصدون تقبيل يده فلا يمكن احداً من ذلك ، بل يضافحه . وكانت ثيابه حسنة ، ورائحته طيبة ، وكان اذا حضر في مجلس ، يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ، وسكينة ووقار . ورأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء ، واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه ، وهم في غاية ما يكون من الادب معه ، والاتضاع له ، واذا خاطبوه فكأنما يخاطبون ملكاً عظيماً . وكان ينفق على من يرد عليه نفقة متسعة ويعطي من يده عطاء جزيلاً . ولم يكن يتسبب في تحصيل شيء من الدنيا ، ولا يقبل من احد شيئاً ؛ وبعث اليه السلطان محمد الكامل الف دينار فردها اليه ، وسأله ان

يجهز له ضريحاً عند قبر امه بتربة الامام الشافعي فلم ينعم له بذلك ،  
ثم استأذنه ان يبني له مزاراً مختصاً به فلم يأذن له بذلك . . .

« سمعتُ الشيخ - ابن الفارض - يقول : كنت في اول تجريدي ،  
استأذن والدي ، واطلع الى وادي المستضعفين ، بالجليل الثاني من المقطم ،  
وآوي فيه ، واقم في هذه السياحة ليلاً ونهاراً ، ثم اعود الى والدي  
لاجل بره ، ومراعاة قلبه . وكان والدي يومئذ خليفة الحكم للغريز  
بالقاهرة ومصر المحروستين ، وكان من اكابر اهل العلم والعمل فيجد  
سروراً برجوعي اليه ، ويلزمني بالجلوس معه في مجالس الحكم ومدارس  
العلم ، ثم اشتاق الى التجريد ، فاستأذنه واعدود الى السياحة . وما  
برحت افعل ذلك مرة بعد مرة ، الى ان سئل والدي ان يكون قاضي  
القضاة فامتنع ، ونزل عن الحكم ، واعتذر الناس ، وانقطع الى الله  
تعالى بقاعة الخطابة في الازهر الى ان توفي ، فعاودت التجريد والسياحة ،  
وسلوك طريق الحقيقة فلم يفتح علي بشيء . فحضرت يوماً من السياحة  
الى القاهرة ، ودخلت المدرسة السيوفية ، فوجدت رجلاً شيخاً بقالاً على  
باب المدرسة ، يتوضأ وضوءاً غير مرتب . . . فقلت له يا شيخ ، انت  
في هذا السن ، على باب المدرسة ، بين فقهاء المسلمين ، وتتوضأ وضوءاً  
خارجاً عن الترتيب الشرعي ؟ فنظر اليّ وقال : يا عمر ، انت ما يفتح  
عليك في مصر ، وانما يفتح عليك بالحجاز ، في مكة شرفها الله تعالى ،  
فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح . فعلت ان الرجل من اولياء الله  
تعالى ، وانه يتستر بالمعيشة ، واطهار الجهل بلا ترتيب الوضوء ، فجلست  
بين يديه ، وقلت له : يا سيدي ، اين انا واين مكة ، ولا اجد  
ركباً ولا رفقة في غير اشهر الحج ؟ فنظر اليّ وأشار بيده وقال : هذه  
مكة امامك . فنظرت معه ، فرأيت مكة شرفها الله تعالى ، فتركته  
وطلبتها فلم تبرح امامي الى ان دخلتها في ذلك الوقت ، وجاءني الفتح

حين دخلتها ، فترادف ولم ينقطع . . . ثم شرعت في السياحة في اودية مكة وجبالها ، وكنت استأنس بالوحش . . . واقتت بوادٍ كان بينه وبين مكة عشرة ايام للراكب المجد ، وكنت آتي منه كل يوم وليلة ، واصلني في الحرم الشريف الصلوات الخمس ، ومعني سبع عظيم الحلقة يصحبني في ذهابي وايابي ، وينخ لي كما ينخ الجمل ، ويقول يا سيدي اركب ، فما ركبته قط . . . ثم بعد خمس عشرة سنة ، سمعت الشيخ البقال يناديني : يا عمر ، تعال الى القاهرة احضر وفاتي ، وصل علي ، فاتيته مسرعاً فوجدته قد احتضر ، فسامت عليه وسلم علي ، وناولني دنائير ذهب ، وقال جهزني بهذه ، وافعل كذا وكذا . . . وتوفي رحمه الله ، فجهزته كما اشار . . .<sup>١)</sup>

« وقال ولده - محمد ولد ابن الفارض - رحمه الله تعالى : رأيت الشيخ ، رضي الله عنه ، نائماً مستلقياً على ظهره ، وهو يقول : « صدقت يا رسول الله ، صدقت يا رسول الله ! » ، رافعاً صوته ، مشيراً باصبعه اليمنى واليسرى اليه ، واستيقظ من نومه ، وهو يقول كذلك ، ويشير باصبعه كما كان يفعل وهو نائم . فاخبرته بما رأيت وسمعت منه ، وسألته عن سبب ذلك ، فقال : يا ولدي ، رأيت رسول الله في المنام ، وقال لي يا عمر لمن تنتسب ؟ فقلت يا رسول الله ، انتسب الى بني سعد ، قبيلة حليمة السعدية مرضعتك . فقال لا ، بل انت مني ، ونسبك متصل بي . فقلت يا رسول الله ، اني احفظ نسبي عن ابي وجدني الى بني سعد . فقال لا ، ماداً بها صوته ، بل انت مني ، ونسبك متصل بي . فقلت صدقت يا رسول الله ، مكرراً لذلك مشيراً باصبعي كما رأيت وسمعت . . . »

(١) مات ابن الفارض بعد عودته من مكة باربع سنوات ، فيكون سافر اليها في نحو السابعة والثلاثين من عمره . وقد سافر وعاد باشارة من استاذ البقال .

وقال ولده ، رحمه الله ، سمعت الشيخ ، رضي الله عنه ، يقول :  
 رأيت رسول الله في المنام ، وقال لي : يا عمر ما سميت قصيدتك ؟ فقلت :  
 يا رسول الله ، سميتها «لوائح الجنان وروائح الجنان» . فقال : لا ،  
 بل مما «نظم السلوك» فسميتها بذلك . وقال : حضر في مجلس  
 الشيخ رضي الله عنه ، رجل . . . واستأذنه في شرح القصيدة نظم  
 السلوك ، فقال له : في كم مجلد تشرحها ؟ فقال : في مجلدين . فتبسم  
 الشيخ وقال : لو شئت لشرحت كل بيت منها في مجلدين .

قال ولده رحمه الله : كان الشيخ في غالب اوقاته لا يزال دهشاً ،  
 وبصره شاخصاً ، لا يسمع من يكلمه ولا يراه ، فتارة يكون واقفاً ،  
 وتارة يكون قاعداً ، وتارة يكون مضطجعا الى جنبه ، وتارة يكون  
 مستلقياً على ظهره مسجى كاليت ، ويمر عليه عشرة ايام متواصلة ، واقل  
 من ذلك واكثر ، وهو على هذه الحالة ولا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم  
 ولا يتحرك ، فهو كما قيل :

ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا  
 ثم يستفيق ؛ وينبعث من هذه الغيبة ، ويكون اول كلامه انه علي  
 من القصيدة نظم السلوك ما فتح الله عليه . . . منها من الثلاثين والاربعين  
 والحسين بيتاً . . .<sup>1)</sup>

وقال لي ولده : سمعت الشيخ يقول : حصلت مني هفوة ، فوجدت  
 مؤاخذه شديدة في باطني بسببها ، وانحصرت باطناً وظاهراً حتى كادت  
 روحي تخرج من جسدي ، فخرجت هائماً كالهارب من امرٍ عظيمٍ فَعَلَهُ ،  
 وهو مطالب به ، فطلعت الجبل المقطم ، وقصدت مواطن سياحتي وانا

(١) نظم ابن الفارض بعض شعره في الحجاز ، وبعضه في مصر ، الا انه نسق  
 ديوانه واملاه في مصر ، بعد عودته من الحجاز .

ابكي واستغيث واستغفر ، فلم ينفرج بالي ، وقصدت مدينة مصر ،  
 ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعوراً ،  
 وجددت البكاء والتضرع والاستغفار فلم ينفرج ما بي ، فقلب  
 علي حال مزعج لم اجد مثله قط ، فصرخت وقلت :

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

قال فسمعت قائلاً يقول بين السماء والارض اسمع صوته ولا ارى شخصه :

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط

وقال لي ولده : رأيت الشيخ نهض ، ورقص طويلاً ، وتواجد  
 وجداً عظيماً ، وتحدر منه عرق كثير حتى سال تحت قدميه ، وخرّ الى  
 الارض واضطرب اضطراباً عظيماً ، ولم يكن عنده غيري ، ثم سكن  
 حاله ، وسجد لله تعالى ، فسألته عن سبب ذلك فقال : يا ولدي ، فتح  
 الله علي يعني في بيت لم يفتح علي بمثله ، وهو :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ، يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وحكى لي ولده قال : كان الشيخ ماشياً في السوق بالقاهرة ، فر  
 على جماعة من الحرسية يضربون بالناقوس ، ويغنون بهذين البيتين وهما :

مولاي ، سهرنا نبتغي منك وصال مولاي فلم تسمح فنمنا بجيال  
 مولاي فام يطرق ، فلا شك بان ما نحن اذا عندك مولاي بيال

فلما سمعهم الشيخ صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصاً كثيراً في  
 وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارين في الطريق ، حتى صارت  
 جولة واسماع عظيم ، وتواجد الناس الى ان سقط اكثرهم الى الارض ،  
 والحراس يكررون ذلك ، وخلع الشيخ كل ما كان عليه من الثياب ،  
 ورمى بها اليهم ، وخلع الناس معه ثيابهم ، وحمل بين الناس الى الجامع  
 الازهر ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وفي وسطه لباسه ، واقام في

هذه السكرة اياماً ، ملقى على ظهره مسجى كاليت ، فلما افاق جاء الحراس اليه ومعهم ثيابه ، فوضعوها بين يديه فلم يأخذها . وبذل الناس لهم فيها ثمناً كثيراً فمنهم من باع ، ومنهم من امتنع من بيع نصيبه وخلاه عنده تبركاً به .

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ ماشياً في الشارع الاعظم . . . وانا معه ، واذا بنا نأخذ تنوح وتندب على ميتة في طبقة ، والنساء يجابونها وهي تقول :

سَتي مَتي مَتي حقاً اي والله حقاً حقاً

فلما سمعها الشيخ صرخ صرخة عظيمة ، وخر مغشياً عليه ، فلما افاق صار يقول ويردد مراراً :

نَفسِي مَتي مَتي حقاً اي والله حقاً حقاً

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ جالساً في الجامع الازهر ، على باب قاعة الخطابة ، وعنده جماعة من الفقراء والامراء وجماعة من مشايخ الاعجام المجاورين بالجامع وغيرهم ، وكالما ذكرنا حالاً من احوال الدنيا مثل الطشت خانة والفرشخانه وغير ذلك ، يقول : هذا من زخم العجم . فبينما هم يتفاوضون في ذلك ، ويفخمون زخم العجم ، اذ المؤذنون رفعوا اصواتهم بالاذان جملة واحدة فقال الشيخ : وهذا زخم العرب ! وتواجد وصرخ كل من كان حاضراً حتى صار لهم ضجة عظيمة . . .

وحكى لي ولده قال : كان للشيخ اربعينيات<sup>١</sup> متواصلة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام . وفي بعض ايام اربعينية اشتهت نفسه عليه هريسة ،

(١) قال ابن الجوزي حاكياً عن الصوفية : « قد اخرج لهم بعض المتأخرين الاربعينية : يبقى احدهم اربعين يوماً لا يأكل الخبز ، ولكنه يشرب الزبونات ، ويأكل الفواكه الكثيرة اللذيذة . »



وكان في آخر ايام الاربعين ، فقال : يا نفس ، اما تصبرين بقية هذا اليوم وتفطرين على الهريسة ؟ فأبت ، وقالت : لا بد من الهريسة في هذا الوقت ا قال الشيخ : فاشتريت الهريسة ، وجئت الى قبة . . . ورفعت اول لقمة الى فمي ، فانشق جدار القبة المذكورة ، وخرج منها شاب جميل الوجه ، حسن الهيئة ، ابيض الثياب ، عطر الرائحة وقال : تف عليك ا فقلت : نعم ، ان اكلتها ا فرميت تلك اللقمة من يدي في الحال ، قبل ان تصل الى فمي ، وتركت الهريسة ، وخرجت من الحرم الى السياحة ، وأدبْتُ نفسي بزيادة عشرة ايام في المواصلة على الاربعين لتتمة خمسين يوماً . . .

وحكى لي قال : كان الشيخ يقيم في شهر رمضان بالحرم لا يخرج الى السياحة ، ويطوى ويحيي ليله . . . فشد والدي في وسطه مئزراً ، وكذلك المجاورون بالحرم ، من اول شهر رمضان ، وهم في طلب ليلة القدر<sup>(١)</sup> ، فتارة يطوفون ، وتارة يصلون ، وانا معهم ، فخرجت ليلاً من الحرم في العشر الاواخر لازيل حقنة بظاهر الحرم ، فرأيت البيت والحرم ، ودور مكة وجبالها ساجدين لله تعالى ، ورأيت انواراً عظيمة بين السماء والارض ، فوجدت هبة ورعباً شديداً ، وجئت الى والدي مهرولاً ، فاخبرته بذلك ، فصرخ وقال للمجاورين الواقفين في طلب ليلة القدر : هذا ولدي خرج يبول ، فرأى ليلة القدر ا فصرخ الناس معه الى ان علا ضجيجهم بالبكاء والدعاء والصلاة والطواف الى الصباح ، وخرج والدي في اودية مكة هائماً في السياحة ، ولم يدخل الحرم الى يوم العيد في تلك السنة .

وحكى لي ايضاً قال : كان الشيخ يتردد الى المسجد المعروف

(١) هي احدى الليالي العشر الاخيرة من رمضان ، التي عددها فرد لا زوج ، كالحامسة والسابعة .

بالمشهى ، في ايام النيل ، ويحب مشاهدة البحر . . . فتوجه اليه يوماً ،  
فسمع قصاراً يقصر ويضرب مقطعاً على الحجر ويقول :

قطع قلبي هذا المقطع ما كان يصفو او يتقطع

فما زال الشيخ يصرخ ، ويكرر هذا السجع ساعة بعد ساعة ،  
ويضطرب اضطراباً شديداً ، ويتقلب على الارض ، ثم يسكن اضطرابه  
حتى يظن انه قد مات ، ثم يستفيق ويتكلم معنا بكلام لديني ما سمعنا  
مثله قط ، ولا نحسن ان نعبّر عنه ، ثم يضطرب على كلامه ، ويعود الى  
حال وجده . . . ولم يزل على هذا الحال من حين سمع كلام القصار الى  
ان توفي ، رحمة الله عليه .

قال ابن خلكان ( ٦٠٨ - ٦٨١ هـ ) = ( ١٢١١ = ١٢٨٢ ) في

ترجمة ابن الفارض :

« سمعت انه كان رجلاً صالحاً ، كثير الخير ، على قدم التجرد ،  
جاور بمكة زماناً ، وكان حسن الصحبة ، محمود العشرة » .

## نصوفه

الحب كائن حي خاضع لقوانين الحياة ، يعوزه الغذاء اليومي ،  
وينمو ببطء الزمن ، وغنى الروح زبدة آلامنا وافراحنا ، ونغم الحياة  
المتكسرة على شواطئنا .

لهذا اذا ولجت يوماً هيكل حب تستوحيه اسراره ، او وقفت امام  
شاعر تتفهم روحه ، فانت لن تسمع ولن ترى ما لم تعص في اعماق  
الماضي ترافق نحو ذاك الحب ، وتوجت هذه الروح .

وانا لاحتاج الى مثل هذا الولوج في ثنايا الزمن ، وطيّات الحياة ،  
عندما نعرض لدرس ابن الفارض ، لفهم ذاك القلب الذي احب حتى  
الفناء ، وغنى الشعر حتى الثمل .

ولكنها امنية خائبة ، لان التاريخ قد اهمل ابن الفارض اهمالاً ،  
فجعلنا مناهل فكره ، وتاريخ قلبه ، واحداث حياته . ان غواة الزهور  
اذا صادفوا منها جميلاً ، دهشوا به ، ونهلوه شتاً وتحديقاً ، وفاتهم السؤال  
عن التربة التي نبت فيها ، واليد التي تعهدته بعنايتها ، والسماء التي مدته  
بنورها . وكان الناس دهشوا بشعر ابن الفارض ، وثملوا بنغماته ،  
فاكتفوا به ، واعرضوا عن روح غنته ، وحياة ابدعته ، حفظوا الشعر  
وشرحوه ، واهملوا الشاعر او نسوه .

اجل ، هناك ترجمة غير يسيرة وضعها الحفيد نقلاً عن الولد ، تراه  
فيها جميلاً وقوراً ، وزاهداً ابياً ، وصائماً جائراً ، وحاجاً يطيل حجه او  
سائحاً يناجي ربه . وتراه دائم الوجد ، دائم الرقص والصراخ ، يتبرك  
بثيابه الناس ، وتحدث على يده الكرامات .

ولكنها ترجمة حفيد ، يوحيا التشيع ، ويسودها الغلو ، فلا يسعنا  
الاطمئنان الى كل ما تسرده من كرامات ، وتصفه من زهد وصوم .

انما مهما كان ايمانك و ايماني ضعيفين ، ومهما بالغنا في التحفظ والالتزام  
فهناك حقائق لا بد من اقرارها .

واول ما لا سبيل الى انكاره فضيلة ابن الفارض ، او على الاقل  
نزوعه الى الفضيلة . ان ابن خلكان يثبت صلاحه ، واقدامه على التجرد  
والخير ، ويثبته لا كحكم شخصي عليه ، بل كما سمعه ، اي كما اجمع  
الناس على تأكيده ، وقلما اجمع الناس على صلاح موهوم . ثم اننا مهما  
اتهمنا الحفيد بالتشيع لا نستطيع اتهامه بالاخلاق المحض ، بتقديس  
شخص لم يكن ليزع الى القداسة . لقد بالغ الحفيد وجيم ، ولكنه  
لم يتخيل تخيلاً ، ويخترع اختراعاً . انه غالى في تواجد جده ، كما غالى  
في كراماته واصوامه ، انما لسنا نشك في ان ابن الفارض كان صوفياً  
مخلصاً في تصوفه ، صادقاً في اقباله على التقوى ومناجاة الله .

وامر ثانٍ لا سبيل الى انكاره هو استعداد ابن الفارض الفطري  
للتصوف . ان حالة الوجد تنتهي في اوجها الى فقدان الشعور بالوجود  
الذاتي المستقل ، والاندماج المطلق بالعالم الخارجي ، او قل بالله الذي  
لم يعد العالم سوى بعض مظاهره المحسوسة . لهذا كل نزعة الى الخلوة ،  
الى خرق حدود الناس للانبساط في حضن الطبيعة الفسيح ، او الدهول  
امام موجات البحار ، الاتية من شواطئ بعيدة ، كل نزعة الى توسيع  
الآفاق ، وهدم سدود الشخصية المحدودة ، نعتها استعداداً فطرياً  
للتصوف . ومثل هذه النزعة واضحة عند ابن الفارض ، تثبت وجودها  
سياحاته الطويلة ، وخلواته المتواصلة ، وانسه بالجبال والبحار .

واذا سلمنا بان ابن الفارض كان مفطوراً على التصوف ، وانه جارى  
فطرته فزهده واحب ، وكون له روحانية غنية ، يصبح من الشيق  
درس هذه الروحانية وتجليل عناصرها الفكرية وال عاطفية ، وهذا ما  
فحاوله الآن استناداً الى شعره اجمالاً وتائيته خاصة .

ان معتنقي الاديان القائلة بالثواب والعقاب يختارون غير قليل في ما سموه الرذيل . اذا كان الله سبق فرأى ان موسى ، مثلاً ، سيكفر به او يعصاه فيكون نصيبه الهلاك ، فلماذا خلقه ، وهو لو خير لا أثر العدم على عذاب ابدى ؟ ان معضلة كهذه تضع عدالة الله ، او على الاقل محبته ، موضع بحث وريب ، وقد اثارت جدالات طويلة ، وحلولاً متنوعة ، لا يتسع مثل هذا الدرس لعرضها .

اما القرآن فقد حل هذه المعضلة باقتراضه عهداً ازلياً اخذه الله على البشر بطاعته وجهه . جاء فيه : « واخذ ربك من بني آدم ، من ظهورهم ، ذريتهم واشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا بلى . — شهدنا ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين ! » (١٧١) .  
فالله اذاً احضر يوماً امامه كل الاجيال التي ستلد من آدم ، واخذ عليهم قسماً بطاعته ، ولهذا اصبحوا مسؤولين عن اتيانهم الوجود ، وارتكابهم المعاصي ، وسيدكر الله الضالين قسمهم يوم القيامة .

وان هذه العقيدة كانت منبهلاً خصباً لخيال المتصوفين وشعورهم .

لقد جعل الصوفيون من يوم الميثاق هذا يوم ولا . شرب فيه المختارون الحمرة الابدية ، خمرة الحب الالهي ، تلك التي تغنى بها ابن الفارض في شعره :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم  
وجعلوا من يوم الميثاق ايضاً يوم الهام ازلي ، افاض به الله علمه على اوليائه ، فكان للنفس من المعرفة ما كان لها في عالم « المثل » الافلاطوني ، وكان لها تذكار كالتذكار الافلاطوني :

وفي عالم التذكار للنفس علمها المقدم ، تستهديه مني فتيتي .

فالصوفي اذاً في عالمنا غريب . هو آتٍ من شواطئ قصة ، حيث

تجلت له الالوهة لمحّة ، فتركت في قلبه نشوة جمال ذابت على ذكرها الدهور ، وفي عقله غمرة نور خبت لديها حكمة الاجيال . لكنه اذ اتى عالم الخلق ، وحلّ في هذا الجسد ، انتابته نزعات قوية تحوله عن ربه ، وتنسيه عهداً قطعه ، وخمرة سكر بها ، وبهرت حواسه اشعة النور الزائل تمحجب عنه انوار الفجر الاول .

فهناء الصوفي اذاً في التخلص من قيود الجسد ، والغفلة عن سحر الالوان والخطوط ، كي يجدد الله في قلبه خمرة الحب الاول ، ويسكب في روعه نوره وهدهاه .

لهذا ترى ابن الفارض يحاول تكسير قيوده الارضية ، تحمسه ذكرى عهده السابق ، ويقلقه الحنين الى النشوة الاولى .  
تراه يعرض عن المجد الى ذل الحمول ، وعن الغنى الى الفقر القنوع ، وعن بهجة الحياة الى الموت في سكرة الهوى :

وماذا عسى عني يقال سوى قضى فلان هوى ، من لي بذا وهوبغيتي ؟  
انما لا تظن ان مثل هذا التحرر من اميال الارض ، من مجد يبهرنا ، ومال يشبع شهواتنا ، وهناء يجب الينا الحياة ، لامر سهل نحققه اذ نشاء . ان مثل هذا التحرر لعمل طويل شاق ، واذ نخالنا بلغناه نرانا نجد في اعراضنا عن المجد مجدداً اخفى ، وفي طلبنا الفقر غنى اسمي ، وفي احتقارنا الموت شهوة حياة اهنأ ، نرانا لا نزال قطب جهادنا ، وغاية سبلنا ، حين كنا نطلب الفناء في الله ، والعودة الى ولاء يوم الميثاق .  
ان حب الدنيا قيد ، وحب الآخرة اثم ، ورجاء الكمال أثر ، فاترع منك كل ميل ، وتجرد عن كل غاية ، واطلب ربك حبياً وحيداً .

هو هذا الهدف دفع ابن الفارض الى ذاك الصوم الطويل يروض به جسده ، وذاك السهر الطويل ينجي فيه ربه ، وذاك الحج الطويل يتثبت

فيه من قوته ليخطو الخطوة الكبرى النهائية ، خطوة الصوفي نحو الاتحاد بربه ، وتلاشي حدود الشخصية للفناء في الوجود الكلي . لقد ضاقت به حدود كيانه ، وحدود العالم ، فاخذ يهدم تلك الحدود ، يقطع كل علاقاته بالارض وبلذات الارض ، ويزهّد في كل رغائب النفس وشهوات الذات ، يتعري من حدود المكان والزمان ليتصل بالله الذي لا يحصره وقت او يحده اين .

ولكن الله حبيبة عزيزة الوصل ، عزيزة المنال ، تلذ القطيعة ، وتستعذب الالم ، واذا ابن الفارض حبيب ولهان لا تجف له دمعة او يهدأ له حنين ، يشكو المهجران شكوى اتعس المحرومين ، ويعاني الخفاء معاناة اصبر المحبين ، علّه يأتي يوم ترق فيه الحبيبة لالامه ، وترضى عن جهاده ، فتمزق الحجب ، وتكشف القناع ، وتناجيه نجوى الحبيبة في هدأة العشايا .

وابن الفارض على يقين من مجي ذلك اليوم ، يقين الحب من قوته . الشرع عقائد جافة ، والفلسفة اراء حثرة ، وكل سبل العقل محدودة ضيقة ، فاذا لم يكن الحب سبيل الله ، فقد ضاعت السبل ، وانقطعت الصلة بين الانسان وربه .

وحج ابن الفارض الى مكة ، وقضى فيها خمس عشرة سنة ، يسوح في وهادها وتلاها ، قلقاً ضائعاً ، ينتظر السياحة العظمى الى الوطن الاول . على الجبل سمع موسى ربه <sup>(١)</sup> ، وفي ليلة وحيدة محتارة اسرى الله باحمد عبده <sup>(٢)</sup> ، واره بهاء وجهه ، فعلى اية تلة من تلال مكة سيناديه الله ، واية ليلة من ليالي الطواف سيجذبه اليه ؟

(١) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : ربّ ، أرني انظر اليك . قال : لن تراني ! (سورة الاعراف : ١٤٣)

(٢) سبحان الذي اسرى عبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى (اي السماء) . . . (سورة الاسراء : ١)

ومن ادراك؟ لعل الوجد الاول كان طوافاً ليلياً... دار ابن الفارض  
 ودارت في اذنه نغمات المصلين ، وفي روحه هزة المنى ورعشات الحنين ،  
 واذا نغم بعيد يأتيه من عالم سحيق ، نغم حديث ربه له يوم الميثاق  
 الازلي ، واذا الروح تنفض عنها ظلال الزمن ، وتستفيق في لحظة على  
 نشوة المسامرة الاولى .

هي الستور قد هوت ، وهو بحال الله قد بدا ، وهي الروح تحس  
 رعشة طرب لم تعرف مثلها قبل اليوم ، وتحس سكرة حب تغيب عندها  
 كل سكرات الارض ، وتغيب الارض نفسها ، بل تغيب هي عن ذاتها  
 في دهشة السفر الاول .

ايدهشك بعد ذلك ان ترى ابن الفارض مصفقاً راقصاً مضطرباً ،  
 وان يكون ذلك فاتحة نوبات وجدية عديدة ، كثر فيها التصفيق والرقص  
 والاضطراب ؟ ولم يدهشك ؟ الا ترى الطفل ، اذا غنى له مربيه ،  
 جدت فيه رعشة لا يسكنها الا الهز ؟ هو الغناء ذكره بخطاب يوم الميثاق  
 وهي العودة الى الوطن هاجت في نفسه الحنين ، وهو الهز عاد به الى  
 الهدوء . وان السماع يبعث نفس الذكرى ، وان ارواح الاولياء تحس  
 نفس النزعة الى الله ، وان الحركة والرقص يخففان من ثقلها ويسكنان .



وابن الفارض اذ تجاوز عهد الرياضة ، وبلغ الوجد ، اصبح يجدثنا  
 عن اتحاده بالله ، وما اولاه ذلك الاتحاد من علم بالغيب واتيان الكرامات ،  
 كما اصبح يتغنى بوحدة الوجود الكوني ووحدة الجمال .

وفي حال الاتحاد بالله ، تتجرد النفس من شواغل الحس ، وتستعيد  
 علمها القديم ، علماً دونه كل علم بشري . وما هذا بالغريب . ألا ترى  
 النفس ، وقد حررها النوم من قيود المحسوس ، تنقل لك اسراراً من  
 عالم الغيب ؟ فلم لا يستطيع الصوفي في يقظته ، وقد اتحد بالله وغاب عن



كل محسوس ، ان يعلن لك اسرار علمه القديم ، بعد ان مثل لديه الغابر والآتي ، وتساوت لديه الابعاد ، وبلغ ذروة الهدى ؟

وما العلم بالغيب سوى نوع من انواع الكرامات ، ومظهر من مظاهر القوة النفسية . هي النفس اذا تجردت من هواها ، وتعترت من اميالها ، تضاعفت قواها ، واستطاعت ما استطاعه قبلها الانبياء ، ما استطاعه موسى وابراهيم وعيسى واحمد ، فسخرت الطبيعة ، وشفيت المرضى ، واقامت الموتى ، ودعت الى الهدى .

وليس حال الاتحاد مجرد غيبة عن محسوس ، وتحرر من هوى ، وقدرة على معجز ، ان هي في اوجها الا عودة الى وحدة او فناء في كل .

ان ابن الفارض رأى في سنى الاتحاد ما كان يحسه ابدًا في اعماق كيانه ، رأى كل وجود فردي ظلًا من ظلال الوجود الكلي ، وكل جمال محسوس مسحة من بهائه . واذا لم يعدد الكائنات ؟ لم يفرق ويفصل ؟ الله هو الكائن الوحيد اللامنظور ، وما الكائنات سوى مظاهره المحسوسة ، صفاتها صفاته ، وافعالها افعاله ، فحتم يقف عندها قصيرو النظر وضعيفو الروح ؟ اما هو ، وقد ولى ابواب الملكوت ، فلن يفرق بين خالق ومخلوق ، ولن يميز بين نفسه وربّه ، بل توحد لديه الوجود ، وتلاشت الاشخاص والفروق .

كل جمال جمال الله ، وكل عاشق عشق الله ، وكل حب لو يعلمون نقي . روح الصوفي نفحة من آله ، هوت وعادت ، واذا هي والله واحد ، تعلم ما يعلم ، وتعمل ما يعمل ، عنها صدر الوجود ، وبها هام العشاق ، ولها صلى المتعبدون ، وفيها توحدت الآلهة واستوى الناس في الاديان . . . ولكن ما هذا ، أهذي ام حكمة ، اكفر ام تقى ؟ وما عسى الفقهاء يحكمون ؟

ما هذا الحب الذي يستبيح كل جميل ؟ ما هذا الاتحاد بالله الذي يوحد الكثير ، ويرفع الفروق ، ويلاشي الطاعات ؟ ان هذا الاباحة هوى ، وطرح فروض ، وكفر ذميم ! ان هذا الاحول يرفضه العقل ، ويجرمه الاسلام ، ويعاقب السلطان اهله ..

هذه تهمة وجهها بعض الفقهاء الى ابن الفارض وذموه ، ودفعها بعضهم وقدموه . اما هو فحاول دفع التهمة ، وصيانة السمعة ، فاشاد بقداسته حياته ، واستقامة اسلامه ، نافياً كل ريبة ، وعمد الى الامثال والقرآن يوضح رأياً ، ويدعم عقيدة.

ان الله يتحد بالصوفي اتحاداً وثيقاً ، فيتكلم بلسانه ، ويعمل باعضائه ، فتتوهم العبد عاملاً ، وما عمل الا الله . لقد ظهر جبريل للنبي بصورة رجل اسمه دحية ، فكان النبي يرى جبريل والحاضرون يظنونهم دحية ، فلم لا يكون ظهور الله في الصوفي ظهور جبريل في دحية ؟ ثم قد تصرع الجن امرأة ، وتكلم على لسانها بلغة غير لغتها ، فيخال الحاضرون المرأة متكلمة لا الجن ، فلم لا يعمل الله في الصوفي ما تعمل الجن في امرأة صرعتها ؟ ان كلا المثلين يثبت اتحاداً بين الله والصوفي يجعل الله عاملاً في الحقيقة ، والصوفي في الحس والظاهر ، ومثل هذا الاتحاد لا ينفي الاثنينية ، ويعني وحدة الوجود ، بل يعطل العبد من كل عمل بين يدي خالقه ومحبوبه.

ثم ما ينقر الفقهاء من اثبات هذا الاتحاد ؟ ألم يكن المعراج النبوي شكلاً من اشكاله ، ومثالاً اعلى يطمح اليه المختارون ؟ اما دنا النبي من الله فكان منه على قاب قوسين او ادنى ، واره الله ما لم يره موسى ، جمال وجهه وكامل علمه ؟ فهل من حرج اذا اقتفى الناس خطى النبي ، وامنوا بالوحي ؟

هذه ادلة حاول بها ابن الفارض دفع تهمة وحدة الوجود ، وسلامة

الايان والاخلاق . وهذه المحاولة ، وان لم تنفِ كل وحدة ، فهي تراخٍ في العقيدة ، ونقض لآيات كهنه :

فوصفي ، اذ لم تدعَ باثنين ، وصفها ، وهيئتها ، اذ واحد نحن ، هيئتي وما زلت اياها ، واياي لم تزل ولا فرق ، بل ذاتي لذاتي اجبت

ونحن اذ نقول هذا تعرض لنا فكرة تلتف كثيراً من تحامل الناس على من اتهمهم بوحدة الوجود ، بل من كل تحامل . اننا لسنا نزي في اقوال الصوفيين سوى اغراق في اللفظ ، وطريقة من طرق الاقناع ، ارادوا بها افهامنا صلاتنا الوثيقة بالله ، وتعلق الكون بقدرته ، اما القول بالوحدة المطلقة - كالقول بالجبر - فكلام خالص لم يعتقد به بشر ، او وهم عارض يبدهه الواقع . ان التفاوت كبير بين قولنا ونياتنا ، وبين نياتنا وعملنا ، فنحن نقول اضعاف ما ننوي ، وننوي اضعاف ما نعمل . فوحدة ابن الفارض - بل كل وحدة - اغراق في اللفظ اكثر مما هي عقيدة في العقل ، وشهوة في الروح اكثر مما هي هدف عملي ، فان توقفت على الالفاظ شجبت ابن الفارض وكفرته ، وان تجاوزت اللفظ رأيت شاعراً تضايق الحواجز احساسه فيتوق الى الافلات ، ورأيت متعبداً هائماً يود الفناء في محبوبه شأن كل المتعبدين الهائمين .

ان ابن الفارض كان معتدل العقيدة ، قويم العمل ، سليم الاخلاق ، مهما اوهمت آياته ، ونتائجها المنطقية ، ومتى خضعت الارواح للمنطق وتقيدت بنتائجها ؟

وان بين ابن الفارض وافلاطون نسباً روحياً ، وبين عقيدتيهما شبيهاً غير خفي . علم افلاطون ان النفس هبطت من عالم مثالي كامل لتسقى فترة في عالم الحس ، ثم تعود الى عالمها الكامل . ورأى ابن الفارض ان الروح شربت يوم الميثاق عهد الولاة الازلي ، ثم اتت هذا العالم غريبة

تحن الى غابر ، وسجينة تفك قيود الهوى ، عساها تعود الى ولاء الوطن  
الاول.

هي المياه في الساقية تجري هادئة صافية الى ان تصطم بالصخرة  
فتضطرب ويلونها الحباب ، ثم تعود تجري هادئة صافية.

وانها لفكرة شائعة في تاريخ الانسانية ان نفترض للنفس عهدين  
سعيدين يفصلهما عهد جهاد شقي.

فهل تكون ذكرى نعيم فقدناه ، ورجاء نعيم ؟



## مختارات من شعره

### الحمزية

شربنا على ذكر الحبيب مُدَامَة  
فان ذُكِرْت في الحلي، اصبح اهله  
وان خطرت يوماً على خاطر امرئ  
ولو نضحوا منها ثرى قبرٍ مَيّت  
ولو طرحوا في فيّ حائطٍ كرمها  
ولو قرّبوا من حانها مُقْعِداً مشى  
ولو عَقِيت في الشرق انفاًس طيها  
ولو خُضِبَت من كاسها كَفّ لَامِسٍ  
ولو جُلبِيت سرّاً على اكه غدا  
ولو ان ركباً يَمْعوا تُتْرَب ارضها  
يقولون لي صفها، فانت بوصفها  
صفاء ولا ماء، واطف ولا هواء  
وقالوا شربت الاثم، كلا وانما  
هينئاً لاهل الدير كم سكروا بها  
وعندي منها نشوةٌ قبل نشأتي  
على نفسه فليكن من ضاع عمره

سكرنا بها، من قبل ان يُخلق الكرم<sup>١)</sup>  
نشأوى، ولا عار عليهم ولا اثم  
اقامت به الافراح وارتحل الهم  
لعاتت اليه الروح، وانتعش الجسم  
عليلاً، وقد اشفى، لفارقه السقم  
وتنطق من ذكرى مذاقتها البكم  
وفي الغرب مزكوم، لعاد له الشم  
لما ضلّ في نيل، وفي يده النجم  
بصيراً، ومن راووقها تسمع الضم  
وفي الركب ملسوع، لما ضره السُم  
خير، اجل عندي باوصافها علم  
ونور ولا نار، وروح ولا جسم<sup>٢)</sup>  
شربت التي في تركها عندي الاثم  
وما شربوا منها، ولكنهم همّوا  
معي ابدأً تبقى، وان بلي العظم  
وليس له فيها نصيب ولا سهم!

(١) هي خمرة الحب الالهي التي شرجه المختارون يوم الميثاق

(٢) اي انها ليست من العناصر الاربعة، الماء والهواء والنار والتراب

# الثائبة الكبرى

او

## نظم السلوك

تبلغ ثائبة ابن الفارض ٧٦٠ بيتاً . وقد اخترنا لك منها  
أم مقاطعها ، مظهرين جهدنا التأليف الشائع فيها .

١ - ألم الحب الوفي

١ سَقَتِي حُمِيًّا الْحَبَّ رَاحَةً مَقَلَّتِي      وَكَأْسِي حُمِيًّا مَنَ عَنِ الْحَسَنِ جَلَّتِ  
فَاوْهَمْتُ صُحْبِي أَنْ شَرِبَ شَرَابِهِمْ      بِهِ سُرٌّ سَرِي ، فِي انْتِشَائِي بِنَظَرَةٍ  
وَبِالْحَدَقِ اسْتَعْنَيْتِ عَنْ قَدْحِي ، وَمَنْ      شَمَائِلِهَا ، لَا مِنْ شَمُولِي ، نَشَوْتِي<sup>(١)</sup>  
وَقَلَّتْ ، وَحَالِي بِالصَّبَابَةِ شَاهِدٌ ،      وَوَجَدِي بِهَا مَا حَيٌّ ، وَالْفَقْدُ مُثَبَّتِي<sup>(٢)</sup> :  
هَبِي ، قَبْلَ يُفْنِي الْحَبُّ مَنِي بَقِيَّةً      أَرَاكِ بِهَا ، لِي نَظَرَةَ الْمُتَلَفَّتِ  
وَمُنِي عَلَى سَمْعِي بَلَنْ ، أَنْ مَنَمْتِ أَنْ      أَرَاكِ ، فَمَنْ قَبْلِي لَعَايِرِي لَدَتْ<sup>(٣)</sup> .  
فَلَوْ كَشَفَ الْعُودَ ابْنِي ، وَتَحَقَّقُوا      مِنْ اللُّوحِ مَا مَنِي الصَّبَابَةُ ابْتَقَتْ ،  
لَمَّا شَاهَدْتِ مَنِي بِصَاثِرِهِمْ سَوَى      تَحَلَّلِ رُوحٍ بَيْنَ اثْوَابِ مَيْتِ  
وَلَمْ أَحْكُ فِي حَيِّكَ حَالِي تَبْرَمًا .      بِهَا ، لِاضْطِرَابٍ ، بَلْ لَتَنْفِيسِ كُرْبَتِي  
وَيَحْسَنُ أَظْهَارُ التَّجَلُّدِ لِلْعَدَى      وَيَقْبَحُ غَيْرُ الْعِجْزِ عِنْدَ الْإِجْبَةِ  
وَكَلَّ إِذَى فِي الْحَبِّ مِنْكَ إِذَا بَدَا      جَعَلْتَ لَهُ شُكْرِي مَكَانَ شُكْرِي  
وَمَنْ يَتَجَرَّشُ بِالْجَمَالِ إِلَى الرَّدَى      رَأَى نَفْسَهُ مِنْ أَنْفَسِ الْعَيْشِ رُدَّتِ  
وَمَا ظَفَرَتْ بَانُودُ رُوحِ مَرَاةٍ ،      وَلَا بِالْوَلَا نَفْسُ صَفَا الْعَيْشِ وَدَّتِ

(١) سكر الشاعر بجمرة الحب الالهي ، لا بجمرة الكرمة .

(٢) الوجد : حالة يفتب معها كل محسوس ، والوجود الذاتي نفسه ، فكأن لا موجود سوى الله . الفقد : زوال الوجد ، فالشعور بالوجود الشخصي .

(٣) مَنِي . . . بَلَنْ : قولِي « لَنْ تَرَانِي » كَمَا قَالَتْ لِمَوْسَى عِنْدَمَا طَلَبَ رُؤْيَةَ اللَّهِ ، فَانْ سَمِعَ كَلَامَكَ ، عِنْدَ تَعَذُّرِ الرُّؤْيَا ، لِذَلِكَ .

ولي نفس حُرٍ لو بذلت لها علي وعن مذهبي في الحب ما لي مذهب  
 وتسليك ما فوق المني ما تسلت وان ملت يوماً عنه فارقت ملتي .  
 وتحكم عهدٍ ، لم يخامرہ بيننا وأخذك ميثاق الولا، حيث لم أبين  
 بمظهر لبس النفس في في طينتي<sup>(٢)</sup> وسابق عهد ، لم يحل مذهبته ،  
 ولاحق عقد جل عن حل فترة<sup>(٣)</sup> وسر جمال ، عنك كل ملاحه به ظهرت في العالمين وتمت ،  
 ٧٦ لانتي مني قلبي ، وغاية بغيتي واقصى مرادي ، واختياري ، وخيرتي .

### ٢ - اتهام الحبيبة

٨٤ ققالت : هوى غيري. قصدت ، ودونه اقتصدت ، عمياً عن سواء محجتي<sup>(٤)</sup>  
 واين السهى من اكمه ، عن مراده سها عمها ؟ اكن امانيك غرت<sup>(٥)</sup>  
 فقتت مقاماً ، حطاً قدرك دونه ، على قدم عن حظها ما تحطت<sup>(٦)</sup>  
 ورمت مراماً دونه كم تطاولت باعناقها قوم اليه فجذت<sup>(٧)</sup>

(١) وتحكم عهد : يقسم بجهه الثابت لها .

(٢) ميثاق الولا : هو عهد الحب الذي اخذه الله على مختاربه ، قبل خالقهم . ان  
 الله احضر يوماً امامه كل الاجيال التي ستلد من آدم ، واخذ عليهم قسماً بطاعته ،  
 وعهداً بجهه . ( انظر الدرس ص ٤٣ ) . مظهر لبس النفس : مظهر النفس وهي  
 غارقة في ظلمة الاجساد ، ملتبسة على الناظر . الطينة : البدن .

(٣) العهد السابق : العهد الذي اخذه الله على خلقه يوم اساحوا . حل :  
 حلول . فترة : ضعف .

(٤) هو غيري : هوى نفسك كما يظهر من البيت ٩٨ . دونه اقتصدت :  
 لم تصل الى حيي .

(٥) السهى : نجم . اكمه : اعمى . العمه : الضلال . امانيك غرت :  
 اميالك تحدعك وتكذب عليك .

(٦) قتت مقاماً : هو مقام الحب الذي تقصر دونه قدماك .

(٧) جذت : قُطعت .

وجئتُ بوجهٍ ابيضٍ، غيرَ مسقطٍ  
 ونهجٍ سبيلي واضحٍ لمن اهتدى  
 وقد آن ان ابدي هواك، ومن به  
 ٩٨ حليفُ غرامٍ انت، لكن بنفسه،  
 فلم تهوئي ما لم تكن في فانياً  
 ١٠٠ افدع عنك دعوى الحب، وادع لغيره  
 ١٠١ واجانب جناب الوصل هيهات لم يكن  
 لجاهك في داريك، خاطب صفوتي<sup>١</sup>  
 واكنها الاهواء عمت فاعمت  
 ضناك، بما ينفي ادعائك محبتي  
 وإيقاك وصفاً منك بعض ادلتي  
 ولم تفن ما لا تجتلي فيك صورتي<sup>٢</sup>  
 فؤادك، وادفع عنك غيئك بالتي<sup>٣</sup>  
 وها انت حي، ان تكن صادقاً متاً

٣ - دفع التهمة

١٠٣ اقلقت لها روحي لديك وقبضها  
 وماذا عسى عني يقال سوى قضى  
 واني الى التهديد بالموت راخن،  
 وها انا مستدعٍ قضاك، وما به  
 ومن درجات الغر امسيت مُخلداً  
 ١٢٥ افلا باب لي يُغشى ولا جاه يُرتجى  
 كأن لم اكن فيهم خطيراً، ولم ازل  
 وكلُّ مقامٍ عن سلوكك قطعته  
 ٢٠٥ فصرتُ حبيباً بل مُحباً لنفسه  
 اليك، ومن لي ان تكون بقبضتي ا  
 فلان هوى؟ من لي بذا وهو بغيتي ا  
 ومن هوله اركانٌ غيري هُدت<sup>٤</sup>  
 رضاك، ولا اختار تأخير مُدتي<sup>٥</sup>  
 الى دركات الذل، من بعد نحوتي  
 ولا جار لي يُحمي لفقد حميتي  
 لديهم حقيراً، في رخاء وشدة  
 عبودية حقتها بعبودة<sup>٦</sup>  
 وليس كقولٍ مرّ: نفسي حبيبتي<sup>٧</sup>

(١) بوجه ابيض : مع الجاه والغنى .

(٢) ولم تفن . . . : لا تجني ما لم تُرَ فيك صورتي ، وتزل صورتك .

(٣) بالتي : بالتي هي احسن الخصال اي بالصدق .

(٤) هو برضى بالموت الذي تطلبه منه برهاناً على حبه في البيت ١٠١ .

(٥) قضاك : حكمك علي بالموت .

(٦) العبودية والعبودة : صاحب العبودية يترك خيرات الارض لخيرات الاخرة

وصاحب العبودة يترك خيرات الاخرة نفسها لاجل المحبوبة .

(٧) بعد سلوك طريق الحب ، والوصول الى الاتحاد بالمحبوبة ، احبتي واحببتها



## ٤ - الفناء في الحبيبة

٢٠٦ خرجتُ بها عني إليها ، فلم اعد  
 وهما انا ابدي في الاتحاد مبدئي ،  
 جلت ، في تجليها ، الوجود لناظري  
 وطاح وجودي في شهودي وبنيت عن  
 فوصفي ، اذ لم تُدعِ باثنين ، كوصفها  
 فان دُعيت كنتُ المحيَّب وان اكن  
 فقد رُفعت تاء الخطاب بيننا  
 فان لم يجوز رؤية اثنين واحداً  
 ٢٢٠ سأجلو اشارات عليك خفيةً  
 واثبت بالبرهان قولي ضارباً  
 بمتبوعة يُنبئك في الصرع غيرها  
 ومن لغة تبدو بغير لسانها ،  
 ٢٢٥ وفي العلم حقاً ان مُبدي غريب ما  
 فلو واحداً امسيت اصبحت واحداً

الي ، ومثلي لا يقول برجة  
 وانهي انتهائي في تواضع رفعتي<sup>(١)</sup> :  
 ففي كل مرثئ ارأها برؤية  
 وجود شهودي ، ما حياً غير مثبت<sup>(٢)</sup>  
 وهيئتها ، اذ واحد نحن ، هيئتي  
 منادى اجابت من دعائي ولبت  
 وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي  
 حباك ، ولم يُثبت بعد تثبت ،  
 بها كعبارات لديك جلية ،  
 مثال محق ، والحقيقة عُمدتي ،  
 على فها ، في مسها حيث جنت ،  
 عليه براهين الادلة صحت ،  
 سمعت سواها ، وهي في الحس ابدت<sup>(٣)</sup>  
 منازلة ما قلته عن حقيقة<sup>(٤)</sup>

وكأني احب نفسي ، لا كما اتهمتني من قبل ( بيت ٩٨ ) باني احب نفسي دونها .  
 (١) اخبرك اولاً عن مقام الاتحاد ، ثم احدثك عن مقام التفرقة الذي انتهى  
 اليه نواضعاً .

(٢) غبتُ عن وجودي اذ شهدت المحبوبة ، ثم غبت عن الشهود نفسه ، فلم اعد  
 اميز بين شاهد ومشهود .

(٣) اذا احال عقلك ان اكون والحبيبة واحداً ، فأسأرب لك مثلاً يجوز  
 لك ذلك . تصور امرأة متبوعة صرعتها الجن وتكلمت على لسانها بلغة غير لغتها ،  
 فالمرأة متكلمة في الظاهر ، والجن في الحقيقة . وكذلك شأن العبد مع ربه في حال  
 الاتحاد ، العبد يعمل في الظاهر ، والله في الحقيقة .

(٤) لو اصبحت واحداً والله ، ونفيت التفرقة ، لخبرت عن طريق المنازلة ،  
 اي الاتحاد بالله ، صحة دعواي .

٢٣٦ فجاهد تشاهد فيك منك وراء ما  
 ٢٤٠ وفارق ضلال الفرق فالجمع منتج  
 وصرح باطلاق الجمال، ولا تقل  
 فكل مديح حسنه من جماها  
 بها قيس لبني هام بل كل عاشق  
 فكل صبا منهم الى وصف لبسها  
 ٢٤٥ وما ذاك الا ان بدت بمظاهر  
 ففي النشاة الاولى تراءت لآدم  
 فهمام بها كيا يكون بها ابا  
 ٢٥٠ وما برحت تبدو وتحفى لعلقه  
 وتظهر للعشاق في كل مظهر  
 كذلك، بحكم الاتحاد بحسبها،  
 بدوت لها في كل صب مقيم  
 ففي مرة قيساً، واخرى كثيراً،  
 وما زلت اياها واياي لم تزل  
 ولكن لصد الضد عن طعنه على  
 رجعت لاعمال العبادة عادة،  
 وصفت سكوناً عن وجود سكينه<sup>١)</sup>  
 هدى فرقة بالاتحاد تحدث<sup>٢)</sup>  
 بتقييده ميلاً لرؤف زينة<sup>٣)</sup>  
 معار له ، بل حسن كل مليحة  
 كمجنون ليلي او كثير عزة  
 بصورة حسن لاح في حسن صورة<sup>٤)</sup>  
 فظنوا سواها ، وهي فيها تجلت  
 بمظهر حوا ، قبل حكم الامومة  
 ويظهر بالزوجين حكم البنوة  
 على حسب الاوقات في كل حقة  
 من اللبس في اشكال حسن بديعة<sup>٥)</sup>  
 كما لي بدت في غيرها وتريت ،  
 باي بديع حسنه وباية  
 وآونة ابدو جميل بثينة  
 ولا فرق ، بل ذاتي لذاتي احبت !  
 علا اولياء المنجدين بنجدي<sup>٦)</sup>  
 واعدت احوال « الارادة » عدي

(١) جاهد في سبيل الاتحاد ، فتجد فيه هدوءاً ناتجاً عن استقرارك في الله .

(٢) تحدث : تنافست .

(٣) الجمال واحد ، هو جمال الله ، فلا تجزئه مفرداً بمظهره المحسوسة الخلابه .

(٤) لبسها بصورة حسن . ظهورها ظهوراً غامضاً من خلال الالوان المحسوسة .

(٥) اللبس : مظهر الغموض والاشكال الناتج عن ظلمة الاجساد .

(٦) رفقاً لظن المشايخ في حق الصوفيين ، القائلين بالاتحاد ، المكتفين بالحب

عن الاعمال الخارجية ، عاد الى الطاعات ، واعمال العبادة . نجد : اعان . نجد : بأس .

وُصمت نهاري رغبةً في مشوبة ، واحيت ليلى رهبة من عقوبة ،  
 وبنّت عن الاوطان هجران قاطع ، ومواصلة الاخوان ، واخترت غزلي  
 وانفقت من يسر القناعة ، راضياً من العيش في الدنيا بايسر بلغة  
 ٢٧٥ وهذبت نفسي بالرياضة ، ذاهباً الى كشف ما حجب العوائد غطت<sup>(١)</sup>  
 ٣٨١ صرفت لها كلي على يد حسنها ، فضاعف لي احسانها كلّ وُصلة  
 ٤١٠ اذا لاح معنى الحسن في اي صورة ، وناح معنى الحزن في آي سورة<sup>(٢)</sup>  
 يشاهدها فكرري بطرف تخيلي ، ويسمعها ذكرى بسمع فطنتي  
 فأعجب من سكري بغير مدامة ، واطرب في سري ، ومني طربتي  
 ٤١٤ فيرقص قلبي ، وارتعاش مفاصلي يصفق كالشادي ، وروحي قينتي  
 ٤٣٠ وينبئك عن شأني الوليد ، وان نشا بليداً ، بالهام كوحى وفطنة  
 اذا أن من شد القمط ، وحنّ في نشاطه الى تفريج افراط كربة ،  
 يُناغى فيلغى كلّ كلّ اصابه ، ويضعي لمن ناغاه كاللثنت ،  
 وينسيه مرّ الخطب حلّو خطابه ، ويُذكره نجوى عهدٍ قديمة ،  
 ويعرب عن حال السماع بجاله ، فيثبت للرقص انتفاء النقيصة  
 اذا هام شوقاً بالمناعي ، وهمّ ان يطير الى اوطانه الاولية ،  
 ٤٣٦ يسكنّ بالتحريك ، وهو جمده ، اذا ما له ايدي مريبه هزت<sup>(٣)</sup>

(١) يمارس الرياضة ليصل الى كشف الحق .

(٢) من هذا البيت الى اخر المقطع يتكلم عن السماع . اذا رأى صورة جميلة ،  
 وسمع غناء بايات القرآن ، دخل في الوجد ، وبدأت المشاهدة .

(٣) في هذه الايات ، يشبه نفسه في حال السماع بالوليد : ان للطفل ، وهو  
 لما يعقل ، الهاماً شبيهاً بوحى الانبياء او فطنة الحكماء ، وانه اذا شدّ قماطه واكربه ،  
 ثم سمع الغناء ، ذكره هذا الغناء بعمود قديمة ، بمسامرة الله له يوم الميثاق ، فتحرك  
 طرباً ، وهمّ بالعودة الى الوطن الاول . ويجزّ له مريبه فيسكن . وهكذا الصوفي  
 اذا سمع الغناء ، ذكر مناجاة الله له ، وحنّ الى وطنه الاول ، ولكن الرقص  
 البريء - كهزّ المرتبي - يسكنّ روحه النازعة الى الها .

٥ - كرامات اهل الفناء

٤٨٨ ومن لم يرث عني الكمال فناقص<sup>١</sup> ،  
 ٥٨٩ فاتلو علوم العالمين بلفظة<sup>٢</sup> ،  
 واسمع اصوات الدعاة وساثر<sup>٣</sup>  
 أحضر ما قد عزَّ للبعد حملهُ ،  
 وانشق ارواح الجنان، وعرف ما  
 واستعرض الآفاق فحوي بجنطرة<sup>٤</sup>  
 ومني لو قامت بيت لطيفة<sup>٥</sup>  
 ٦٠٠ هي النفس ان القتهاها تضاعت  
 بذلك علا الطوفان نوح<sup>٦</sup> ، وقد نجا  
 ومن يده موسى عصاه تلقفت  
 وفي آل اسرائيل مائدة من السما  
 ٦١٥ وجاء باسرار الخميع مفيضا  
 ٦٥٥ وضربي لك الامثال مني منة<sup>٧</sup>  
 ٦٦٤ فقل لي من القى اليك علومه  
 وما كنت تدري قبل يومك ماجرى  
 على عقبيه ناكص<sup>٨</sup> في العقوبة  
 واجلو علي العالمين بلحظة  
 اللغات ، بوقت دون مقدار لمحة  
 ولم يرتدذ طرفي الي<sup>٩</sup> بغضمة  
 يصفح اذيال الرياح ، بنسمة  
 واخترق السبع الطباق بجنطوة  
 لرُدت اليه نفسه وأعيدت<sup>١٠</sup>  
 قواها ، واعطت فعلها كل ذرة<sup>١١</sup>  
 به من نجا من قومه في السفينة  
 من السجرا هو الأعلى النفس شقت  
 اعيسى انزلت ثم مدت  
 علينا ، لهم ختما<sup>١٢</sup> ، على حين فترة<sup>١٣</sup>  
 عليك ، بشأني مرة بعد مرة<sup>١٤</sup>  
 وقد ركدت منك الحواس بغفوة  
 بامسك ، او ما سوف يجري بغدوة

(١) يتكلم عن كراماته : يتلو علوم العالمين بلفظة ، ويرى ما في العوالم بلحظة ،  
 ويسمع صوت كل داعٍ وباي لغة بلمحة ، ويمض ما فصلته المسافة بطريقة عين ، ويثم  
 كل رائحة زكية بنسمة واحدة ، ويستعرض الارض والسما بسرعة ، ويقم الموتى .  
 (٢) تقوى النفس بالتجرد عن الاهواء ، وتصبح كل ذرة قادرة على اتيان  
 الحوارق .

(٣) تلقفت : تناولت . شقت : صعبت .

(٤) جاء محمد ، خاتمة الانبياء ، باسرار جميعهم .

(٥) يضرب مثلاً يفهمنا به كيف تستطيع النفس بتجردها من علائق الحس ان  
 تأتي بغرائب الاعمال والعلوم .

فأصبحت ذاعلمٌ باخبار من مضى،  
 اتحسب ما جاراك، في سنة الكرى  
 وماهي الا النفس، عند اشتغالها  
 تجت لها بالغيب في شكل عالم  
 ولو انها قبل المنام تجردت  
 وتجريدها العادي أثبت أولاً  
 ولا تكُ بمن طيشته دروسه  
 فثم وراء النقل علمٌ يدقُ عن  
 واسرارٍ من يأتي، مُدلاً بنجزة<sup>(١)</sup>  
 سواك، بانواع العلوم الجليلة؟<sup>(٢)</sup>  
 بعالمها عن مظهر البشرية؛  
 هداها الى فهم المعاني الغريبة<sup>(٣)</sup>  
 لشاهدتها مثلي بعينٍ صحيحة<sup>(٤)</sup>  
 تجردها الثاني المعادي فاثبت<sup>(٥)</sup>  
 بحيث استقلت عقله واستقرت  
 مدارك غايات العقول السليمة<sup>(٦)</sup>

٦ - النبي مثال الفانين

٧٥٠ ولست مَلموماً ان أثبت مواهي  
 ولي من مفيض الجمع، عند سلامه  
 وامنح اتباعي جزيل عطيتي  
 علي « بأو ادنى » اشارةً نسبة<sup>(٧)</sup>

- (١) في النوم تتصل النفس بعالم الغيب وتطلعت على اسراره .
- (٢) انظن شخصاً اخر اطامك على ما عرفته في المنام ؟
- (٣) لا ! انها النفس انصرفت عن المظاهر البشرية الى عالمها الروحي ، فتجلت لذاخا عالمة بكل شيء .
- (٤) لو تجردت النفس في اليقظة من عوائق الجسد لشاهدت ما تشاهد في المنام .
- (٥) وتجرد النفس من علائق الجسد واتصالها بعالم الروح برهاناً على خلودها ومعادها .
- (٦) ما تراه النفس في حال الالهام الصوفي اجلّ من كل علم عقلي او شرعي .
- (٧) مفيض الجمع : النبي محمد ، وهو في اعلى مراتب من بلغوا الجمع . أو ادنى : هو مقام بلغه النبي من الله ، في معراجهِ المعروف : « والنجم اذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين او ادنى ، فاوحى الى عبده ما اوحى . . . » (قرآن ٥٣ ، ١ - ١٠) .  
 وقد بلغ الشاعر هذا المقام ، فلم عليه النبي ، وهذه نسبة بين روح النبي وارواح الاولياء المتصوفين .

ومن نوره مشكاة ذاتي اشرفت  
علي ، فنارت بي عشا ئي كضحتوي<sup>١)</sup>  
٧٥٧ وبدر ي لم يأفل ، وشمسي لم تقب ،  
وبي تهتدي كل الدراري المديرة .

### في نعمة العود

ما بين معتزك الاحداق والمهجـ  
ودعت قبل الهوى روعي لما نظرت  
له اجفان عين فيك ساهرة  
اصبحت فيك كما امست مكتسباً  
لا كان وجد به الأماق جامدة  
عذب بما شئت ، غير البعد عنك ، تجذ  
وخذ بقية ما ابقيت من ريق  
من لي باتلاف روعي في هوى رشأ  
تراه ، ان غاب عني ، كل جارحة  
في نعمة العود والناي الرخيم ، اذا  
وفي مسارح غزلان الحائل في  
وفي مساقط انداء الغمام على  
وفي مساحب اذيال النسيم ، اذا  
وفي التثامي نعر الكاس ، مرتشفاً  
لم ادر ما غربة الاوطان ودومعي

انا القليل بلا اثر ولا حرجـ  
عينا ي من حسن ذلك المنظر البهجـ  
شوقاً اليك ، وقلب بالغرام شهجـ  
ولم اقل جزعاً يا ازمة انفرجي<sup>٢)</sup>  
ولا غرام به الاشواق لم تهجـ  
اوفي محب بما يرضيك مبتهجـ  
لاخير في الحب ان ابقى على المهجـ  
حلو الثمائل ، بالارواح ممتج  
في كل معنى لطيف ، رائق ، بهج  
تألفا بين الحان من الهزج  
برد الاصائل والاضباح في البكج  
بساط نور من الازهار منتسج  
اهدى الي سحيراً اطيب الارج  
ريق المدامة في مستزده فرج  
وخاطري ، اين كنا ، غير متزعجـ

### صار بعضي كلي ا

انتم فروضي ونفلي انتم حديثي وشغلي ا  
يا قبلي في صلاتي ، اذا وقفت اصلي ،

(١) من نور النبي اشرفت ذاتي ، واصبح ليلي كنهاري .

(٢) الجزع : ضد الصبر .

جمالكم نصبُ عيني  
وسرّم في ضميري،  
آنست في الحمي ناراً  
قلت : امكثوا ، فلعلني  
دنوت منها فكانت  
نوديت منها كفاحاً<sup>(١)</sup>  
حتى اذا ما تدانى اأ  
صارت جبالى دكاً  
ولاح سر خفي  
وصرت موسى زمامي

اليه وجهت كلي،  
والقلب طُورُ التجلي .  
ليلاً ، فبشرت اهلي  
اجد هداي ، لعلني  
نار المكّام قبلي<sup>(٢)</sup>  
ردوا ليالي وصلي ا  
مِيقاتُ في جمع شملي ،  
من هية المتجلي  
يدريه من كان مثلي  
وصار بعضي كلي !

### سائِر الاطغان

سائِر الاطغان يطوي البيدطي  
وبذات الشيخ عني ، ان مرر  
وتلطف ، واجرِ ذكري عندهم  
قل : تركتُ الصب فيكم شبحاً  
خافياً عن عائِدِ ، لاح كما  
بين اهليه غريباً نازحاً  
جائحاً ان سيم صبراً عنكم  
حائرّاً في ما اليه امره

منعماً عرج على كئبان طي  
تَ بجي من غريب الجزع ، حي  
علهم ان ينظروا عطفاً إلي  
ما له مما براه الشوق في  
لاح في برديه بعد الشرطي ،  
وعلى الاوطان لم يعطفه كي<sup>(٣)</sup>  
وعليكم جانحاً لم يتأي<sup>(٤)</sup>  
حائرّاً ، والمرء في المحنة عي

(١) المكّتم : موسى .

(٢) كفاحاً : وجهاً لوجه

(٣) لي : مصدر لوى اي عطف

(٤) يتأي : يتوقف

يا أهيلَ الود أنى تنكرو  
 لم يرق لي منزلٌ بعد النقا  
 أه واشوقي لضاحي وجهها  
 انحلت جسمي نحولاً ، خصرها  
 بس حالٌ بدأت من انسها  
 وحشة ، او من صلاح العيش غي

خفني الوطء ، ففي الحيف ، سلمت ، على غير فؤادٍ لم تطبي  
 كان لي قلبٌ بجرعاء الحمى ضاع مني ، هل له ردٌ علي ؟  
 ذهب العمر ضياعاً وانقضى باطلاً اذ لم افز منكم بشي !

### با ليل

غيري على السلاوان قادر  
 لي في الغرام سريرة  
 ومُشبهه بالعصن قلبي  
 حلوا الحديث ، وانها  
 وسواي في العشاق غادر  
 والله اعلم بالسراير  
 لا يزال عليه طائر  
 حللوة شقت مرائر !

يا ليل ، ما لك آخره  
 يا ليل طل ، يا شوق دم  
 لي فيك اجر مجاهد  
 طرفي وطرف النجم فيك كلاهما ساه وساهر  
 يرجى ، ولا للشوق آخر  
 اني على الخالين صابر  
 ان صح ان الليل كافر  
 يهنيك ! بدرك حاضر  
 يا ليت بدري كان حاضر !

### نلك الليالي ...

قف بالديار ، وحي الاربع الدرسا  
 وان اجتك ليل من توحشها  
 ونادها فعاها ان تجيب ، عسى  
 فاشعل من الشوق في ظلماتها قبسا



ياهل درى النفر الغادون عن كلف  
 فان بكى في قفار خلقتها لججا ،  
 فذو المحاسن لا تُحصى محاسنه  
 كم زارني والدجى يربد من حنق  
 وابتز قلبي قسرا . قلت : مظلمة ا  
 غرست باللحظ وردا فوق وجنته  
 فان ابى ، فالاقاحي منه لي عوض  
 كم بات طوع يدي والوصل لجمعنا  
 تلك الليالي ، التي اعددت من عمري  
 لم يحل للعين شيء بعد بعدهم  
 يا جنة فارقتها النفس مكرهة ،

بيتُ جُنحَ الليالي يرقب الغلسا  
 وان تنفس عادت كلها ييسا  
 وبارع الانس لا أُعدَم به انسا  
 والزهر تبسم عن وجه الذي عبسا<sup>١</sup>  
 يا حاكم الحب ، هذا القلب لم حُبسا ؟  
 حق طرفي ان يجني الذي غرسا  
 من عوض الدر عن زهر فما نجسا  
 في بردته التقى لا تعرف الدنيا  
 مع الاحبة ، كانت كلها عرسا  
 والقلب مذ أنس التذكار ما أنسا  
 لولا التأسي بدار الخلد ، متُ اسى .

### انه الغرام هو الحياة ...

زدني بفرط الحب فيك تحيرا  
 واذا سألتك ان اراك حقيقة  
 يا قلب انت وعدتني في حبه  
 ان الغرام هو الحياة فمت به  
 قل للذين تقدموا قبلي ومن  
 عني خذوا ، وبي اقتدوا ولي اسمعوا  
 ولقد خلوت مع الحبيب ، وبيننا  
 واباح طرفي نظرةً آملتها  
 فدهشت بين جماله وجلاله

وارحم حشى بلظى هواك تسعرا  
 فاسمح ولا تجعل جوالي لن ترى<sup>٢</sup>  
 صبرا ، فحاذر ان تضيق وتضجرا  
 صبا ، فحقق ان تموت وتُعذرا  
 بعدي ، ومن اضحى لاشجاني يرى :  
 وتحدثوا بصابتي بين الورى !  
 سرُّ أرق من النسيم اذا سرى  
 فعدوت معروفاً ، وكنت منكرا  
 وغدا لسان الحال غني مخبرا

(١) الزهر : النجوم . الذي عبسا : المحبوب .

(٢) هو جواب الله الى موسى : لن ترائي !

فادر لحاظك في محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيه مصوراً  
لو ان كل الحسن يكمل صورة وراه ، كان مهلاً ومكبراً

### هو الحب ا

هو الحب فاسلم بالحشام الهوى سهل  
وعش خالياً ، فالحب راحته عناً  
ولكن لدي الموت فيه ، صباية ،  
نصحتك علما بالهوى ، والذي ارى  
فان شئت ان تحيا سعيداً فت به  
احبة قلبي ، والحببة شافعي  
اخذتم فؤادي ، وهو بعضي ، فما الذي  
تباله قومي اذ رأوني متيماً  
وماذا عسى عني يقال سوى غدا  
وقد علموا اني قتيلٌ لحاظها  
حديثي قديم في هواها وماله ،  
ومالي مثلٌ في غرامي بها كما  
جری حبها مجرى دمي في مفاصلي  
فنفاس يبذل النفس فيها اخا الهوى  
فمن لم يجذ في حب نعم بنفسه

فما اختاره مضمي به وله عقل  
وأوله سقم واخره قتل  
حياة ، لمن اهوى علي بها الفضل  
مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو  
شهيدياً ، والا فالغرام له اهل !  
لديكم ، اذا شتمت بها اتصل الجبل  
يضركم لو كان عندكم الكحل ؟  
وقالوا : بن هذا الفتى مسه الخبل ؟  
بنعم له شغل ، نعم لي بها شغل !  
فان لها في كل جارحة نصل  
كما علمت ، بعد ، وليس له قبل  
غدت فتنة في حسنها ما لها مثل  
فاصبح لي عن كل شغل بها شغل  
فان قبلتها منك يا حبذا البذل !  
ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل !

### قلبي محمدني

قلبي محمدني بانك متلفي  
لم اقض حق هو ان كنت الذي  
روحي فذاك ، عرفت ام لم تعرف !<sup>1)</sup>  
لم اقض فيه اسي ، ومثلي من يفي

ما لي سوى روحي، وباذل روحه  
يا مانعي طيب المنام ، وما نحى  
عطفاً على رمقي وما ابقيت لي  
اخفيت حبكم فاخفاني اسي  
ولقد اقول لمن تحرش بالهوى  
انت القليل باي من احبته  
قل للعدول : اطلت لومي طامعاً  
دع عنك تعنفي وذق طعم الهوى  
برح الحفا ، بحب من لو في الدجى  
لو اسمعوا يعقوب ذكر ملاحه  
وعلى تفان واصفيه بحسنه ،  
ان زار يوماً ، يا حشاي تقطعي  
ما للنوى ذنب ، ومن اهوى معي

في حب من يهواه ليس بمسرف  
ثوب السقام به ، ووجدي المتلف  
من جسمي المضنى وقلبي المدنف  
حتى ، لعمرى ، كدت عنى اختفي  
عرضت نفسك للبلا فاستهدف  
فاختار لنفسك في الهوى من تصطفي  
أن الملام عن الهوى مستوقفي  
فاذا عشقت فبعد ذلك عتف  
سفر اللثام ، لقلت يا بدر اختف  
في وجهه ، نسي الجمال اليوسفي  
يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف  
كلفاً به ، او سهار يا عين اذرفي  
ان غاب عن انسان عيني فهو في .

## نفا

ولما تلاقينا عشاء وضمتنا  
وملنا كذا شيئاً عن الحبي حيث لا  
فرشت لها خدي وطاء على الأثرى  
فما سمحت نفسي بذلك غيرة  
وبتنا ، كما شاء اقتراحي ، على المنى  
سواء سبيلي دارها وخيامي  
رقيب ولا واش بزور كلام  
فقلت : لك البشرى بلثم لثامي !  
على صونها مني ، لغز مرامي  
ارى الملك ملكي والزمان غلامي

## ايات متفرقة

ته دلالة فانت اهل لذا كما وتحكم ، فالحسن قد اعطا كما

ولك الامر فاقض ما انت قاضٍ فعليّ الجمال قد ولا كما  
 ما ثنائي عنك الضنى ، فباذا يا مليح ، الدلالُ عني ثناكا ؟



أوميضُ برقٍ بالابرق لاجا ام في ربي نجد ارى مصباحا  
 ام تلك ليلي العامرية اسفرت ليلاً فصيرت المساء صباحا ؟



محفف السير واتند يا حادي انما انت سائق بفؤادي ا



# فلاسفة العرب

## سلسلة دراسات ومختارات

---

### ظهر منها :

- ١ - ابن الفارض ( طبعة ثالثة )
- ٢ - ابو العلاء المعري ( طبعة ثانية )
- ٣ - ابن خلدون ( طبعة ثانية )
- ٤ - الغزالي : في جزئين ( طبعة ثانية )
- ٥ - ابن طفيل ( طبعة ثانية )
- ٦ - ابن رشد : في جزئين ( طبعة ثانية )
- ٧ - اخوان الصفاء ( طبعة ثانية )
- ٨ - الكندي
- ٩ - الفارابي : في جزئين

### للمؤلف ايضاً :

- قربان الاغاني : معرب عن طاغور
-

تمّ طبع هذا الكتاب  
في الثلاثين من شهر اذار  
سنة ١٩٥٥